حالة 508

اسم الكتاب: حـالة 508
اسم الكاتبة: شـروق كمـال
تدقيق لغوي: مصطفى حسين- سوسن رضوان
تصميم الغلاف: مـروة صـلاح
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى – 2020 م
رقم الإيداع: 22501 / 2020
الترقيم الدولي: 978 – 977 – 6852 – 27 – 3

arabiclibrary2017@gmail.com
almaktaba79@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017
01030365801 - 01014977934

جميع الحقوق محفوظة

للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

حـــالة 508

مجموعة قصصية

شـــروق كمـــال

إهـــداء

إلى أصدقاء الشغف، ورفقاء القلم، وشركاء الحروف..

لبعض الكتابات وجع، ولبعضها مخاض، تنتظر ولادتها بفارغ الشوق، فتقيم مأتمًا داخل روحك قبل أن تغادر حنايا قلبك.

لبعض النصوص مطر، وشتاء داخلي ووجد.. كل الكتابة وجع.

تحتفي بأفكارك على الورق، تنتهي من الكتابة، وتضع قلمك؛ لتتأمل كلماتك كأنك تنظر في وجه وليدك للمرة الأولى بحنان وحب، وبينك وبين حروفك حبل سُري لم ينقطع، ورباط سحري لن تُفك طلاسمه، تتعلق بك الكلمات تخافُ أن تغادرك.. فتطمئنها أنها ستبقى دومًا قطعة منك، فتبكي في خاطرك، وتنزفها أنت على الورق.

إلى أولئك الذين يكتبون.. كل الكتابة وجع، وإن لم تتألم.. فأنت لم تكتب بعد!

شـــروق

أصـل ولوحة

تُرى ما زمن الرحلة من محطة الرمل لمحطة الجيزة؟ كانت هذه رحلتي الأولى بالقطار. لا يهم سأتشاغل بأي شيء، ربما أراجع بعض اللوحات التي رسمتها مؤخرًا، بالطبع لن أجرؤ على إضافة أو تعديل أي شيء مع هذه الاهتزازات التي تغربل ذراتك كأنما تهزك لتنفض عنك ما علق بك من سحر الإسكندرية قبل عودتك إلى القاهرة؛ لكن في الحقيقة، الجالس بجواري لم يدع لي أي مساحة من الملل. حدق طويلًا في اللوحة التي استقرت بين يديه، تنهد ونظر من نافذة القطار إلى اتساع المدى بين السماء والأرض، ثم عاد وابتسم لي وهو ينظر إلى اللوحة في ولع:

لا أستطيع أن أصف لك كيف تشابهت تضاريس روحيْنا في وديانها وتلالها، فنحن نمتلك نفس شلالات الحياة، وعين مزاج الغابات الاستوائية المتقلبة. اتسعت ابتسامته وأردف قائلا :

حتى مناخات قلبيْنا تطابقت في نسماتها وشمسها المشرقة، وأحيانا في أعاصيرها وشتائها الكئيب. هي تحمل كثيرًا من قسمات روحي، لكنها أكثر رقة وعذوبة حين أضمها، كنت أحتضن فيها زمنًا أحببته. اختلس النظر إلي كأنما ندم على جملته الأخيرة، ثم اعتدل في جلسته وقد أخفض عينيه قائلًا:

لكن لابد أن أقول: إنها كانت أكثر تصالحًا مع نفسها وأكثر قدرة على استعادة أجنحتها للتحليق مع عصافير السعادة، وأكثر استيعابًا للواقع.

ثم قطب جبينه وزم شفتيه ولبث مليًا، ثم زفر في غضب وهو يحدق في وجهي حتى اختفت عيناه خلف سحابتيْ وجع:

أتعرفين؟! ملولة كانت هي، لا تعرف كيف تلوي عنق الأحلام حتى تجعلها تتحقق، ثم تراجعَ في كرسيه يعيد حساباته الشخصية، أو ربما كانت عجولة لا تتحمل التلكؤ طويلًا في محطات الانتظار. صمت فهمست له متسائلة وقد أراح رأسه على ظهر المقعد وأغمض عينيه في أسى:

- ماذا حدث؟ وكيف افترقتما؟ أدار رأسه ببطء ناحيتي وهمس في شجن:

- كانت تريد استقرارًا وأطفالًا، كانت تريدُك أنتِ، وأنا رسام، لا قيمة عندي للوقت، أضبط ساعتي على زمن اللوحة. هي أحبت جنوننا معًا؛ ولكن في لحظة من العقل الخالص تركتني ومضت في طريق الاستقرار.

مددتُ يدي برفق إلى لوحة أمي التي رسمتها لها بالفحم والتي استقرت بين يدي هذا الغريب الجالس بجواري في قطار الإسكندرية. كنت أتأملها ولم أدرِ إلا وهو يهتف باسم والدتي في لهفة وينتزعها من يدي. أدركت الآن أني نجحت في نقل ملامحها، ونجحت في إيقاظ ذكريات هذا الرجل المسكين الذي أشعر بالألم من مجرد مراقبة لآلئ حزنه التي انفرط عقدها من جفنيه المغلقين

على حسرة الفقد. استأذنته قبل نزولي في محطة الجيزة، سألته عن اسمه لكنه أومأ برأسه وأخرج من حقيبته الصغيرة دفترًا صغيرًا للرسم به خمسون صورة أخرى بالفحم لأمي.

هـذه أنـا

انتبهي يا فتاة! ارفعي رأسك وانظري للطريق، اقتربي.. ألن تلقي عليّ تحية الصباح؟ مدت الخالة أم سالم، أقصد الخالة فضة، يديها بواحدة من مخبوزاتها الشهية لتناولني إياها، لم يعد أحد يناديها بلقبها منذ أن مات ابنها في حرب الخليج، وأصبح اسم سالم يفجر ينابيع الحزن من عينيها، ويبحر بها إلى شواطئ الذكريات التي لا يطأها سواها، ولا تعود منها إلا بوجع.

هي جارتنا منذ أن تفتحت عيناي على هذه الدنيا، تقطن الدور الأرضي، في الحقيقة هي تقطن هذه النافذة التي أصبحت عينيها على العالم، كما أصبحت رئة شارعنا، نتنفس بها نسائم الطيبة والخير، وأيضًا عبق البخور يوم الجمعة، وما لذ وطاب من أطايب الطعام. كم أغبط قطط الحي على مشاركتها لخالتي فضة في طعامها! تُرى هل فضة هو اسمها حقيقة؟ أم اكتسبته من ذلك الإبريق الفضي الضخم الذي ألمحه في الخلف وهي تطل برأسها لتلقي علي تحية الصباح بوجه زينته التجاعيد، فبدا أكثر بشاشة وبشرًا، تلفه بغطاء رأسها الأسود الذي أصبح عنوانًا لها منذ رحيل سالم. بينما أتعثر أنا في أفكاري وأطارد أحلامي بأن يكون هذا اليوم مختلفًا عما تأتي به الأيام التي أصبحت متشابهة إلى حد الملل، أفتح نصف عين كل صباح وأنا أتلمس رسائل الحنين من أبويّ اللذين تركاني وحدي؛ ليكملا جمع ما يكفي ليشتتنا من جديد. وحيدة أنا إلى حد اليتم،

مبعثرة كأوراق الوجع على رصيف النسيان، ورغم حياتي الجامعية إلا أني نجحت في أن أكون غير مرئية، ربما ساعدني على ذلك ملامح غربتي التي حفرها صمتي وعزوفي عن التواجد في مرمى الكلام. وحدها الخالة فضة كانت تلمحني، تقتنص طيفي، ويذيب حلو حديثها قطع المرارة العالقة في حلقي من بكاء الصمت على ضياع الحروف المهاجرة إلى أبوين غائبين عن ابنتهما الوحيدة، مع سبق الإصرار والترصد.

أعدل من هيئتي، لأخفي هزالًا أضحى واضحًا علي وقد فقدت كثيرًا من الوزن مؤخرًا بعد أن خاصمتني شهيتي، أصلح من غطاء رأسي المتطاير.

آاااه..ما هذا الصداع المفاجئ؟ كأني ارتطمت بحائط خرساني، وأوجاع جسدي تتوالى كقطع الدومينو المتراصة، ما إن تسقط إحداها إلا ويندفع الباقي في توالٍ متسارع. فجأة اشتعل الصراخ في الشارع، منذ ماتت جدتي وأنا لا أحتمل أصوات الصراخ والعويل، التي تجذب روحي إلى هوة سوداء، وتتركني معلقة؛ أتأرجح بين أراضي الفقد وسماء الغياب. لماذا هذا الصراخ الذي يسحب روحي من جسدي؟ أشعر بصعوبة في التنفس وخدر في جسدي، ولكن شيئا ما يجذبني للدخول إلى تلك الحلقة من البشر الذين يلتفون حول ذلك الجسد المسجى على الأرض. هل هو حادث طريق؟ أشعر بصعوبة في الرؤية، رؤيتي أضحت ضبابية كصباحات الشتاء، وكذلك كان الصباح الذي أخبرني فيه والدي أنهما لن يأتيا في أجازة منتصف العام، وأن علي

أن أمضي أجازتي حبيسة ذاتي. الخالة فضة تفترش الأرض، بالكاد أتبينها وهي تدق صدرها بيديها، تمامًا كما فعلت أمي عندما أخبرتها برغبتي في التقديم لكلية الفنون الجميلة، شهقت يومها ثم صرخت في دهشة، والمجموع الكبير! كيف يتم معاقبتي على تفوقي بحرماني مما أحب! أشعر كأن الناس يتباعدون، ويتلاشون من المشهد، وصوت الصراخ يخفت كأنه همهمات على ضعفها إلا أنها مازالت تنشب أظافرها في أذني، وجفناي ثقيلان كوجعي الذي يعتصر رئتيّ فينسحب الهواء منهما. أقترب من ذلك الجسد الساكن، واليد الباردة ذات النبض الأخرس، والوجه الشاحب الغارق في دمائه، أزر عينيّ لأتحقق منها، أبتلع ريقي الجاف وأحاول أن أمد يدي لأخفف عن خالتي فضة.. يا الله، أرى الآن أفضل وقد زال الألم، لم أعد أشعر بمن حولي... ذلك الجسد لن يعاني مرارة الخذلان مجددًا، لن يقبع في ركن الانتظار المرهق، لا مزيد من الأعياد المنطفئة، ولا رسائل الحنين الصباحية. هذه الفتاة لن تنتظر رحلات العودة في مطارات الغربة، ولا بعض الليالي الدافئة المبعثرة على خريطة الأجازات السنوية. يا إلهي.. هذه الفتاة.. هي أنا. لم يبق إلا صوت أمي وهي تهمس لي في الرسالة الصوتية التي استمعت إليها قبل خروجي من منزلي إلى الجامعة في الصباح أنها تدخر الضحكات حتى نلتقي، وأنا يا أمي أدخرت عمرًا كاملًا لن أعيشه.

من الطابق الخامس والثلاثين

توقف الزمن فجأة، ربما لأن الصور المتتابعة بسرعة تعطي شعورًا بأن الصورة ثابتة لا تتحرك، شعور غريب بأني أطفو على سطح الهواء، كأني أصعد بدلًا من أن أهبط نحو قدر لا أدرك كنهه لأني ببساطة لم أخطط له، وهو ما لم أعتده. أنا الآن أسبح في الهواء، أهوي من الطابق الخامس والثلاثين، أنا المهندسة المعمارية التي ترسم قراراتها كلوحة محسوبة بدقة. بدأ الأمر كقرار لحظي لم أخطط له أيضًا، عندما دعتني سلمى لزيارة عاجلة لها في مكتبها في الطابق الخامس والثلاثين، حاولتُ تأجيل الزيارة بدعوى صعوبة إيجاد مكان لصف سيارتي أسفل المبنى المكتظ بالمكاتب الإدارية، وهو ما يصيبني بالملل وفقدان الرغبة حتى في الكلام بعد أن نلتقي، وليس لأن مزاجي معتل اليوم فقط بل هو كذلك مؤخرًا، ولكن هذا السبب أنجح دومًا في ربطه بحجر ثم ألقي به في غيابة جب الإنكار حتى لا يطفو على سطح ملامحي ويفسد يوم الآخرين. أمام إلحاحها بأنها تحتاج لجرعات من الفضفضة استسلمت كعادتي. ملف تطورات حالة سلمى النفسية يرقد في أمان في واحد من الرفوف العقلية القريبة من تناول ذاكرتي، كل ما علي فعله هو أن أضيف في كل مرة التطورات التي استجدت على علاقتها بوالدتها، ومؤخرا خطيبها أمجد، رغم تعاطفي مع سلمى إلا أني أرى أن علاقتها مع والدتها لا تعدو كونها علاقة عادية بين أي أم

تريد أن ترى ابنتها في صورة أقرب إلى المثالية، مع بعض الضغط المشروع جدًا ليس إلا، لكني لا أستطيع أن أبوح بذلك لسلمى؛ بل على العكس فأنا دومًا أستمع باهتمام أو أرسم ملامح الاهتمام بدقة كما يفعل معظم الأطباء النفسيين بينما أسبح عائدة مثلهم تمامًا إلى نفس الذكريات مع أمي. لا أعتقد أن أمي كانت فعلًا متسلطة أو أنها كانت تدفعني أحيانًا للجنون لا لابد أني أبالغ فعلًا، يبدو أنهن جميعًا يحملن نفس الكتيب الخاص بالتعامل مع الأبناء مع اختلاف تقبلنا جميعًا لهذه الضغوط وقدرتنا على التحمل دون أن نصاب بأمراض نفسية خفية، التي ربما لو أمهلني القدر وهو ما لا يبدو في وضعي الحالي ممكنًا ولكن لو لم أكن عالقة الآن في الهواء في طريقي للارتطام بقوة بهذا الأسفلت الأصم، ربما كان من الأفضل لو اعترفت بإصابتي بنوبات الاكتئاب التي أخفيها ببراعة حتى صرت مضرب المثل في التوازن النفسي. أعتقد أني لو تزوجت سأكون فقط النموذج الأحدث لأمي، أحمل نفس الكتيب، وأمارس نفس الضغط وربما مع شخصيتي التحليلية التي يتهمني البعض أنها تصل في بعض الأحيان إلى درجة الهوس، كنت سأحمل قدرًا أكبر من الاهتمام والتدقيق وربما سأمارس عليهم جلد الذات الذي أمارسه مع نفسي عادة ليس بسبب أن أمي كانت سببًا بأي حال من تكويني ولكن لأني هكذا ببساطة. أما علاقة سلمى بأمجد خطيبها، فللحقيقة لم أختبر مثلها ليكون لي مرجعية من الأفكار اللهم إلا خبرة مشوهة من الأفلام والروايات التي أدمنها، وأجد فيها ظلًا وارفًا أهرب إليه

من صحراء حياتي المترامية الأطراف، بعد إصراري على الوحدة ولفظ كل من يقترب من الارتباط بي بعيدًا عن فقاعتي الخاصة جدًا، هي تعطيني راحة حقيقية في أن أكون أنا أنا دون سعي من أحدهم لترويضي لأحصل فقط على لقب زوجة، ثم أتعاطى التعاسة التي تدمنها الكثيرات ممن حولي، ليس خوفًا من الارتباط وليس عجزًا عن التواصل كما تلمح سلمى كثيرًا في طيات كلامها. كعادتي اليوم كنت أستمع لسلمى بنفس ملامح الاهتمام التي تتخللها بعض المؤثرات الصوتية التي أتقنها والتي تعطي انطباعًا بالتركيز والتعاطف معًا، ولكن حرارة الغرفة كانت أعلى من المعتاد، رغم أن سلمى لم تشاركني نفس الإحساس، ولكني ربما لم أخبرها حتى بشعوري الرهيب بتصاعد الدم في عروقي وشعوري بالغليان غير المبرر، فقط تذكرت أشياء يومية عادية لا أدري لماذا استدعيتها أو تداعت هي فوق رأسي، لن أذكرها الآن؛ لأنها تثقلني فتسرع من سقوطي الحر إلى الأرض، المهم أني تمطعت في الكرسي، فكرت وقتها أن هذا هو الحل لأزيح تلك الأفكار والهموم علها تتساقط حولي ولا تلمحها سلمى، لكنها استمرت في التراكم فوق رأسي حتى حجبت الرؤية وشعرت بضبابية الغرفة، فأشرت لسلمى بأن تكمل حديثها بينما انتزعت نفسي من الكرسي وعدلت من هندامي، ثم سرت ببطء إلى النافذة، أزحت الستائر فانقشع الضباب قليلًا ولكن الهواء كان قد انسحب من الغرفة، فحاولت فتح الشباك، حاولت بلطف وهدوء ولكنه لم ينفتح، كانت سلمى

تكمل حديثها في عصبية وقد تلطخ وجهها ب"الماسكارا"، رغم أني نصحتها أكثر من مرة باختيار الأنواع المضادة للماء، التي صممت خصيصا لتكون مضادة للدموع ليس إلا، نظرت لها في ذهول وأنا لا يصلني صوتها، هل كانت مزحة منها أن تحرك شفاهها دون أن أسمعها أم أن الغرفة حين انسحب منها الهواء لم يعد ممكنا أن يصلني الصوت عبر الأثير؟! تمامًا كتجربة الجرس القابع أسفل الناقوس التي اختبرناها في المدرسة، لطالما كنت أنا ذلك الجرس الذي لم يسمعه أحد لأن الأيام صماء حوله ففضل أن يلعب دور الأبكم. تابعت إشارات سلمى عن طريقة فتح النافذة، لم تكن تحتاج جهدًا بدنيًا ولكن عقلي كان قد توقف على بعد خطوات من فتحها، ربما كان يعلم بما تخططه نفسي، كان عقلي يحاول حمايتي من لحظات الحرية الخاطئة التي لم أعتدها عندما أزحت الزجاج وغمرتني نسمة هواء بكر لم تتلوث بهذه الغوغاء في الأسفل. نظرت للأشياء متناهية الصغر التي تجري في كل اتجاه، تسارُع غريب لا يقل عن تسارع دقات قلبي وأنفاسي ورغبة دفينة في التحرر من كل شيء بدءًا من فضفضة سلمى التي طالما شعرت أني أستحقها أكثر منها، ومرورًا بهذه الملامح التي تسكنني ولا أحبها وانتهاءً بهذا القلب الذي أنهكته الأمنيات الشحيحة.. أشعر باقترابي من الأرض ولكن تغمرني السكينة ويضمني استسلام مهيب، فأفرد يداي كجناحين؛ لكنني أدرك أنني بصدد تحليق معاكس نحو الأرض.

فقط لبضع دقائق

- فقط لبضع دقائق..

تعلقت عينا الصغيرة بوجه أمها، اتسعت عيناها لتردد وعودًا بالحفاظ على محتويات الدرج. أحاطت بذراعيها النحيلتين خصر أمها في محاولة أخيرة لانتزاع موافقتها؛ لن أعبث بشيء حتى أني لن أحرك أي شيء من مكانه.. فقط سألقي نظرة سريعة. رفعت قدميها عن الأرض، ربما أرادت أن تقنع أمها أنها كبرت حقًا، وأنها تستطيع أن تتمتع برؤية ما يحتويه درج الحلي الخاص بأمها. ابتسمت والدتها ابتسامة متعبة وهزت رأسها:

- لن تهدأي حتى تحصلي على ما تريدين أليس كذلك؟ ربتت على رأس الصغيرة وخفضت رأسها لتطبع قبلة سريعة على جبهتها.. لا تحركي شيئًا من مكانه فقط يمكنك تأمل الحلي دون تحريكها.. لقد رتبته بعناية. قفزت الصغيرة فرحًا، فضحكت الأم وتمتمت عائدة لمطبخها:

- يومًا ما سيكون كل ما في هذا الدرج لكِ ولأخواتك.

انطلقت الصغيرة بسرعة، روحها تسابق قدميها. استعانت بالكرسي الصغير الذي تجلس عليه أمها أمام المرآة، وصعدت إلى دُرج أحلامها. فتحته برفق، مدت أطراف أصابعها تتحسس السلاسل التي رصت بعناية.. آه هي

تلك إذن التي تتزين بها أمي وتحيط بها رقبتها تمامًا كما أفعل أنا حين أحتضنها.. سلاسل ذهبية وسلاسل يزينها حبات من الخرز الملون، وعقد آخر من الأحجار الزاهية. مدت أصبعها لتضعه في خاتم بينما يرقد مكانه في الدرج دون أن تجرؤ على رفعه من مكانه. كانت عيناها تخزنان كل ما ترى ودقات قلبها تتسارع أمام هذا الكنز المهيب. تنفست أخيرًا بعد أن كتمت أنفاسها وهي تغوص في أعماق الروائع التي سلبتها النوم ليلتها. ابتسمت لنفسها ابتسامة فرح وهي تريح رأسها المنبهر بدرج أمها السحري على وسادتها تلك الليلة... يومًا ما ستزينني أمي بسلاسلها.. وستضع خواتمها في إصبعي، ونامت الصغيرة تحتضن حلمًا غاليًا.

- فقط لبضع دقائق...

ردت على نداء أختها من الحجرة المجاورة. فتحت أختها باب الحجرة..

- ما الذي يبقيك هنا طويلًا؟ تعالي. لابد أن ننهي هذا الأمر الآن قبل اصطحابك؛ لتلبسي فستان زفافك وتضعي زينتك بعد قليل، أريدك أن تختاري ما يروق لك من حقيبة مجوهرات أمي رحمة الله عليها لتلبسيها في زفافك... خذي ما شئت حبيبتي. رفعت عينين مغرورقتين بالدموع إلى وجه أختها الذي يحمل نفس قسمات الطمأنينة والهدوء التي كانت تزين وجه أمها...

- فقط أمهليني بضع دقائق أخرى. لماذا لم تعد لحلي أمي نفس اللهفة! كان حبي لهذه الحلي، جزءًا من عشقي لصاحبتها، والآن.. لم يعد بريق الماس ولا بهاء الأحجار يغريني بارتدائها. ربتت أختها على كتفها وأهدت قبلة لجبينها، كما كانت تفعل أمها لتهدئتها...
- كانت أمي ستحب أن ترتدي شيئًا منها في يوم زفافك.. لقد ألححت عليكِ منذ وفاتها أن تختاري ما يروقك وأنتِ تماطلين يا صغيرة... أنا أعرف مدى ولعك بزينة أمي.. وولعك بدرج حليها... هل تريدينني أن أعيد ترتيبها لك في الدرج؟ هل يرضيك هذا؟ كانت حبات اللآلىء تتدحرج على وجنة الأخت الكبرى وهي تداعبها فمسحتها على عجل ورسمت ابتسامة فرح بعناية طردت بها غيمة بكاء تقف على حافة رأس أختها العروس.. مدت أصبعها إلى الخاتم الذي جربته منذ عشرين عاما، صار يلائم إصبعها الآن وأغلقت أختها عقدًا ماسيًا حول رقبتها.
- ستكونين أحلى عروس الليلة.. وستكون أمي حاضرة بزينتها معنا في ليلة عرسك.

حـالـة 508

الظلام يمد يده إلى عقله ويعبث في أفكاره، يختنق في وجعه، فينهض سامح مسرعًا يدفع زجاج النافذة؛ ليقتنص بعض الهواء، يمر بيده على رأسه ليهدئ سيل الأفكار، ويمسح وجهه بنسمة هواء ديسمبرية باردة؛ ولكنه ما لبث أن أدار ظهره على صراخ ذلك الرجل العجوز رفيقه في الغرفة وهو ينظر له شزرًا:

- أي غباء هذا الذي يدفعك لفتح النافذة في هذا الجو القارس؟
- أختنق.. أنا لا أستطيع أن أتنفس في هذه الغرفة

مط الرجل الكهل شفتيه ثم أدار وجهه وغطى جسده كاملًا بملاءة بيضاء ثم قال مزمجرًا:

- إلى متى ستظل تجرّنا إلى إهوائك الشخصية ضاربًا بعرض الحائط متاعبي الصحية؟ لماذا لا تطلب نقلك إلى غرفة وحدك؟ المشفى كبير وهناك الكثير من الغرف.

تنهد الشاب الصغير الجالس في ركن الغرفة، وأشعل سيجارته ونفث حلقات الدخان في هدوء قائلًا لسامح:

- دعك من هذا الكهل، يخاف على صحته والموت يحوم حول رأسه مزمجرًا، يخشى من لفحة برد تقتات على وجع مفاصله، وهذا

المحلول المثبت في ذراعه يقطر السم إلى أوردته، فيتوغل في ذرات جسده الواهن، أنا أرى يا صديقي وقع أقدام الموت في هذه الغرفة، أسمع صوت نحيب الخلاص..

نظر سامح بغضب:

- التدخين ممنوع، هل نسيت أنك في مشفى؟ ابتسم من زاوية فمه، ونظر بنصف عين:

- لا أدري عنك، ولكني لن أدعهم يسممونني بهذا المحلول وتلك الحقن، لست فأر تجارب، لا أدري كم دفعت شركة الأدوية لعائلتي من أجل أن يلقوا بي هنا في هذا المسلخ!

اتسعت حدقتا سامح، وهو ينظر بهلع، وقد اختنقت الكلمات على أعتاب شفتيه، واقترب بوجهه ينتظر أي إضافة أو توضيح من الشاب الذي بدا هادئًا، واثقًا من كلماته:

- ماذا تقول؟ من أين لك بهذه الفكرة الشيطانية؟

ضحك الشاب حتى كاد يسقط عن كرسيه، ثم مسح عينيه الدامعتين وهو يحاول أن يتوقف عن شلالات الضحك التي تحمله في تسارع نحو الجنون. أطفأ سيجارته ثم هب واقفًا وهو يتنحنح ليزيل آثار الضحك الذي علق بصوته وليعيد قسمات الجدية إلى وجهه.

سار بهدوء نحو النافذة، ثم أشار بسبابته أن ائت. نظر سامح إليه في ريبة، ولكن الشاب وقف متحديًا وهو يردف:

- انظر بنفسك، اختلس نظرة إلى ساعته ثم أضاف.. بعد قليل يظهر!

سار سامح بخطا متثاقلة، كأنه يخشى مواجهة شبح آت من تلك النافذة وقد قطب جبينه، ثم صاح الشاب فجأة..:

- ها هو، انظر لذلك الرجل الأنيق ذي الحقيبة السوداء، أتدري لو دققت في هذا الحذاء الذي يرتديه، إنه لا يقل عن ثلاثة آلاف جنيه، وهذه الحقيبة و.. قاطعه سامح في غضب..
- مالي أنا وهذا الرجل، ليلبس ما يشاء! قبض الشاب على ذراعه وهو يهمس بصوت أشبه بالفحيح:
- هذا الرجل هو مندوب شركة الأدوية التي تجري علينا التجارب، يبدو أنهم لم يرسلوا رجلًا عاديًا، ربما يكون مديرًا مهمًا أو.. لا أدري؛ ولكنه يأتي في هذه الساعة كل يوم، أو ربما كل ثلاثة أيام، يعطي للممرضة صباح التي تأتي مساءً محتويات حقيبته؛ لتخلطها في دوائنا، وفي الصباح يسحبون العينات من دمائنا، نحن هنا لخدمتهم، دماؤنا التي تسحبها تلك الحقيرة، تكافأ عليها أيما مكافأة، ونحن نقبع في آخر السلسلة البشرية، كفئران المعامل، وهم كالعلقات[1]،

1- ديدان ماصة للدم

يلصقون إبرهم في أجسادنا يمتصون دماءنا ويلقون بنا في سلة الوجع، دائرة لا تملك أن تغادرها إلا إذا أحدثت ثقبًا في قطرها لتنسل منه، وتهرب من وجودهم الذي يضيق عليك إلى براح الحرية في عيشة كريمة، ولكن أين؟ هم يحيطون بنا في كل مكان، لو افلتّ من قبضة تلك الشركة ستضطر للاستسلام أمام صفعة العمل تحت ضغط من لا يرحم ليمتص قدراتك وطاقاتك من أجل أموال طائلة يجنيها ولا تنال منها أنت إلا الفتات، سيمتصون دمك وإنجازاتك بأي طريقة كانت، كل ذلك لا يهم، ما يحدد نجاحك هو عدد الماشين خلف نعشك، كم صديقًا بقي معك في النهاية، ثم غمغم في أسى.. إلا إذا كان عقابك مضاعفًا فبقيت أنت آخر من يرحل، فتعيش وحيدًا وتموت وحيدا، ولا تجد من يترحم عليك!

أزاح العجوز الغطاء من فوق رأسه، وقد أصابه هياج جعل من الصعب تبين انفجارات الكلمات الهادرة من شفتيه:

- لعنة الله عليكم وعلى سليمان، أرجو من الله أن يسخطكم قرودًا، مكانكم أنتم وسليمان على الشجر في غابات بدائية أنتم لا تنتمون للبشر، أنتم قرود تقلدون حركات البشر؛ ولكنكم طبقة غوغائية، تعرفون متى تشعلون فتيل العنف وتجروننا نحو هاوية لا فكاك

منها، كان الأولى بكم أن تعيشوا في جزر منعزلة عن بقية البشر الراقي، مثلي أنا. حدق سامح في غضب..

- من سليمان هذا؟ التفت الشاب غاضبًا

- أنا أكره القرود، وذلك الشامبانزي العابس في وجوم في حديقة الحيوان، يدّعي الاكتئاب! ماذا يعرف عن سلاسل الخذلان التي تقيدك إلى وجع روحك؟ متى ذاق مرارة الفراق وعلقم الغياب؟ منافق.. ذاك القرد القابع في ركن حجرته وحيدًا قد ظفر ببعض الخصوصية من ادعائه الاكتئاب، ونحن لا نملك إلا أن نرتدي وجه الفرح ليقبلونا؛ لأننا لا نملك رفاهية الحزن يا صديقي، لا نملك سعة التعبير عن أنفسنا، ولا بحبوحة البكاء حتى حين تهاجمنا الوحدة؛ لأنهم سيظهرون، ويتكاثرون حولك كالأميبا المقيتة، ويفضحون ضعفك، ويكشفون سوءة صدقك، كأن خطيئتك الصراحة فيرموك بأحجار زيفهم، يكرهون الحقيقة يا أخي، يكرهون حقيقة عكارتهم فيُسقطون ذلك على نقائنا.

لوح العجوز في غضب:

- من بلل سريري؟ أنا أكره البلل، ولا أجد الجفاف إلا في حلقي. حظي التعس ألقى بي في هذه الحجرة مع مخبولين مثلكما، سأطلب من الممرضة في الصباح أن تنقلني حيث لا أرى هذه الوجوه الكلحة.

عندما كنت أمر في الشارع كان الجالسون على المقاهي يهمون بالوقوف، ويتوقف الأطفال عن اللعب، وتسقط النساء قطع الملابس التي كانت تهم بفردها على الحبال المشدودة بقوة في الشرفات، كنت أحاول أن لا أنظر إلى وجوههم الفقيرة حتى لا يصيبني فقرهم وقلة حيلتهم، كنت أدرك أنهم يتهامسون بانبهارعلي، ويتسامرون ليلًا حول نجاحاتي، كنت نجمًا في السماء.. وهأنا ذا أتهاوى من عليائي وأرسف في قيود مرضي، ألا لعنة الله عليكم أيها القرود وعلى سليمان. هز سامح رأسه في أسف

- من سليمان؟ ضرب الشاب يده في الحائط!
- إلى متى يقتاتون على بقايا شبابنا؟، ثم يلقون بنا إلى غياهب العجز، أنت يا سيد سامح أين زوجتك؟ أين أبناؤك؟ وحدها أمك لم تفقد الأمل في شفائك، تأتي بعين الأمل وترحل بعين الوجع، وحدها أمك تنحني لتجمع ما تبقى منك، تربت على خوائك، وترتق جراحك، أين زوجتك؟ هي صغيرة وأنت غائب.. ربما... لاحول ولا قوة إلا بالله. قفز سامح وأمسك بملابس الشاب في ثورة عارمة
- أيها الكلب القذر، زوجتي؟ منى هي الأحن والأشرف، وأنا أمرتها ألا تأتي حتى لا تأكلها أعينكم يا حثالة البشر، إياك أن تتكلم عنها.

أمسك الشاب بيد سامح وأنزلها بحزم، ثم دفعه بقوة في صدره فأفقده توازنه وألقى به على الأرض فارتطم بسرير العجوز، الذي انتفض من السرير مسرعًا

- آه، وصلتم لسريري، تريدون رأسي، أنا لن انتظر حتى تحتلون دماغي، تزلزلون عرش وجودي، سأقف شامخًا؛ كفارس من العصور القديمة، أحمل سيفي وأمضي إلى آخر أشواط الرحلة.

اهتزت ركبتاه، وتقطعت أنفاسه وهو يضيف

- ألا يليق بعجوز مثلي أن يقضي أيامه الأخيرة في هدوء؟ ألا أستحق بعد هذا العمر والخدمة المتفانية لجميع الذي عشت من أجله أن أرتاح في غرفة وحدي، أن أحظى ببعض الراحة قبل راحتي الأخيرة؟ ثم أجهش بالبكاء

أشعل الشاب سيجارة جديدة فرمقه سامح في غضب، فهز كتفيه، ثم توجه إلى النافذة ينفث حلقات دخانه ويتأملها في عمق..

طرقات خفيفة على الباب ودخلت الممرضة صباح مبتسمة هادئة كعادتها، كان سامح يقف في منتصف الحجرة الصغيرة ذات السرير الواحد، ما أن رآها حتى صاح سامح بقوة

- أي قسوة تلك التي أسلمت بها روحك للشيطان يا صباح، اتقي الله فينا، نحن سجناؤك هنا وأنت أيتها السجانة المقيتة تسممينا بهذا

الدواء، وإليك ما سيحدث وأرجو أن تعلمي أني أتكلم عن نفسي وبالنيابة عن رفيقاي في الغرفة أيضًا. أولا: نحن لن نتناول هذا الدواء الذي تحملينه، هذا السم المغلف بتلك الابتسامة الدافئة؛ ليحمل لنا صقيع الموت، نحن لسنا فئران تجارب أتسمعين؟ لقد انكشف كل شيء الآن، قالها وهو يشير ناحية النافذة ثم أردف قائلًا:

- وثانيا، ابحثي عن حجرة لائقة لهذا العجوز المسكين، الرحمة يا صباح، هذا ما أنتظره منك، أما هذا الشاب المخبول الذي يدخن في الحجرة، أرجو أن تثنيه عن التدخين الذي يضايقني، أو أقسم بالله سألقيه من هذه النافذة بعد تطاوله على زوجتي.

ابتلعت صباح ريقها وابتسمت في توتر

- حالًا يا سيدي.. فقط تمدد على سريرك وارتح قليلًا

خرجت صباح مسرعة في الممر وجذبت الهاتف بسرعة:

- سيدي، حالة الغرفة 508..
- ...
- نعم مريض الفصام الموجود في الغرفة المفردة 508.
- ...
- نعم يا دكتور، عاودته الهلاوس والضلالات من جديد.

متى يزورنا صوتك؟

ترنَّحت اللحظة قبل أن تُلقي بنفسها من أعلى جسر الذكريات، لَحِقت بسابقاتها. لحظات ولحظات انْسبْنَ في جدول الوجع في رحلتهن إلي نهر النسيان.

استيقظت وأمسكت بهاتفها، قربتهُ إلى عينيها المُنهكتَين من التحديق في تلافيف عقلها المتخم بلَحظاتِ الانتظارِ المُنتَحِرَة "مَتى يزُورُنا صوتُكَ؟"

أطلقتْ سراحَ أشعة الشمسِ التي قَيَّدَتْها ستائر غرفتها، فسرَت قشعريرة في بدنها عندما لفحها دفء شمس الشتاء رغم صقيع ذاتها وزخات المطر من عينيها. ألصقت وجهها بزجاج النافذة تسْتَجدي دفئاً يُعينها على التفكير في تفاصيل ما يليقُ بلحظات الشوق التي تنتظرها مع فنجان حنينها الصباحي.

أغلقتْ مفكرتها على آخر لحظات انتظارها، وأسندتْ رأسها على كفَّيها متسائلةً..

- من أين تُولد لحظات اللهفة؟ ربما عليها أن تعقد صلحًا بينها وبين النسيان، أن تَكُفَّ عن البحث بينَ الرّمادِ عن جذوة تشعل شوقها من جديد، ربما عليها أن تبحث عن أرضٍ جديدةٍ حيثُ لا تنتحر اللحظات وجعًا، ولا تتوهج الآهات شَوقًا؛ أرض بلون محايد لا

يُذكرها بألوان عشقه القزحية. ولكن كيف ! وكل الألوان تبدأُ به وتنتهي إليه. ربما عليها أن تتعلم كيف تحتَفي بالشتاء، وأن تنسجم مع الأشجار العارية من الدهشة في انتظار الربيع. انتظار! الكون كلهُ يعيش انتظارها، ووحدها تُدرك أنَّ عليها أن تلتحف ببقايا شوق وحطام أمل وأن تتآلف مع وجوه الحيرة على جسور اللقاء دون أن تتساءل أين أنا فيه؟.

تسلَّلت نسمةٌ باردة من نافذتها، أهْدَتها نفسًا عميقًا طردتْ به شبح الهدوء الذي اعتراها هذا الصباح. أفتقدُ صوتي، لم أعد أتكلّم مع أحد، فحروفي لا تتزين إلاّ لُملاقاتك. متى كانت آخرُ مرةٍ زارَنا صوتُك؟

آه أتذكّرُ عندما جاءني صوتُك كطفلٍ أضاعَ أمَّهُ في الزحام، كُنتَ تَحتَضِنُ صَوتي بِغضبٍ ولهفة كي أُرَبت على ما ألمَّ بِك. أتذكّرُ لهفتَكَ لِتحكي وتَحكي وتحكي عن ضيقِكَ وأنا أستبقيك معي بصمتي، ولهفةٍ خَفِيّة أنسجُها في كلمات الطمأنينة التي أُدَثِّرُكَ بِها. أتذكرُ حينَ هاتَفْتَنِي لِتشتكي وجعاً، وتسألني أن أدعو لك.

أطرَقَتْ طويلاً، وانهارَ سَدُّ الدُّموعِ في عينيها، فانسابَت لآلِئُ الوجع على خَدَّيها، إذن أنتَ بخير، ما دام لا يزورُنا إلا صمتُك.

أمسكَتْ هاتفها، واحتَضنتْ شجاعَتَها المُهتَزِئة لتطلب رقمهُ. غريبٌ كيفَ تتحَوَّلُ الأسماءُ إلى أرقام، ثم تتحوّل الأرقامُ إلى دقات قلوب. ولكن قبل أن تتصل أنار هاتفها اسمه وجاءَها صوته حانيًا. سألته في دلال:

- لم أكن أدري أنّ لأفكاري ضجيجاً عاليًا حملَتْهُ أجنحةُ الشوق إليك!

ابتَسَمَ مُستفهِمًا، وهَمَسَ إليها قائلًا:

- كنتُ واقفًا لتوِّي على جسر الحيرة أتساءل بيني وبيني، متى يزورُنا صوتُكِ؟

السامــوراي الأخير

اعتدلت في جلستها مع مرور المضيفة لتتأكد من غلق خزانات الحقائب استعدادًا لإقلاع الطائرة. ابتلعت ريقها وتمتمت بهمهمات تثبت قلبها الذي ينخلع من صدرها قلقًا، نظرت من نافذة الطائرة نظرة حنين وتنهدت..

كان واقفًا هناك، على التلّة الكبيرة بين أشجار الساكورا، شاخصًا بِبصرِه إلى السماء، رافعًا سيفَهُ في تحيةٍ لأرواحِ الذين رحلوا،

خاشعًا كان، يبدو منهمكًا في صلاةٍ كناسكٍ في مِحْراب. كنتُ أهُمُّ بالعودة إلى منزلي بعد يوم طويل من العمل على أطروحتي، عندما التَفتُّ إليه، وكانت الشمس تُلملم أشعتها على عجل، وتنسحب أمام نسمات الليل الباردة، في آخر محاولاتها لتنشر عباءة الدفء على كتف المغيب، وقد أضاءت قسمات وجهِهِ حُمرة الشفق، كان يقف هناك كبطل أسطوري خرج لِتَوِّه مِن كتب الحكايات القديمة.

- أيكون هو الساموراي الأخير؟!

مدت يدها المرتجفة إلى حقيبة يدها وهي تغلق الطاولة المتدلية من الكرسي حسب أوامر المضيفة أخرجت كتابًا قديمًا، احتضنته بقوة، كأنها تتوحد معه، وضعته على حجرها وأخذت تمرر يديها عليه في ولع وشغف. انسلت الأفكار من رأسها تغزل منظرًا أصبح كالوشم بين عينيها وجفنيها.

عاليًا كان، كجبل من شُموخ، يبدو مِن بعيد كَروح العظمة، تجلّت فوق تِلك التلة، ملامحه حُفِرت كأنَّه شجرة سدر قديمة، رائحة الدم المُتجمِّد على درعِهِ الذهبي ترحل مع نسمات الهواء إليها، مُختلطة بعطرٍ غامض، كرائحة خشب الصندل المُحترق مغلفةً بِعبق أزهار الكرز. كانت تود لو سألته::

- أكانت دماء أعدائِك، أم دماء من ضممتهم إليك قبل أن يغادروا، أم أنها دماؤك كتبتْ فوق صدرك أنك كُنتَ معهم هناك يوم وقفْتَ كماردٍ تصول بسيفِك؛ ولكنْ لم يبق لك إلا أن تُقاتل دوامات الذكريات و طواحين الفقد؟!

أحست بغصة في حلقها، ووجع في صدرها، وقد انسحب الهواء من حولها، وبدأت عيناها تومضان بضوء فضي، التفتت في فزع وأمسكت بيد المضيفة التي كانت تحكم إغلاق حزام مقعدها..

تأملتهُ مِن بعيد، تلفحُهُ أشعة المغيب، أُقسِم أني رأيتُ ضوءًا في عينيه! ليس انعكاساً لأشرعة الشمس الهاربة نحو ليلٍ يأوي إلى كهف السُّكون؛ بل كانت عيناه كياقوتَتيْن تلمعان في ملامح وجهِه البائسة، كان يتنفس بِبُطء، يعلو صدرَهُ فتسري في روحها قشعريرة تهُزُّ قلبها، ويزفر فتسمع همس النسيم في أذنيها أن انحني أمام جلال اللحظة وخلديها في ذاكرة الأيام .

- "لابد أن أغادر الطائرة حالا"، كانت عيناها ترجوان المضيفة، وتتعلقان بأمل استعادة روحها.

- أرجوك يا سيدتي.. لن أستطيع، لا يمكن أن أغادر طوكيو اليوم، وربما أبدًا، أرجوك، أنا أختنق. ربتت المضيفة على كتفها وقد انتقلت إليها عدوى فزعها، فهرولت ناحية قمرة القيادة.

ركضت سلمى خارج المطار مسرعة، وأوقفت سيارة أجرة، ألقت بنفسها داخل السيارة، وأخبرت السائق بوجهتها، حدق السائق في ملامحها الحزينة إلى حد الوجع، الشاخصة في المجهول إلى حد الذهول، ثم انطلق بالسيارة، وأوصلها إلى أحد المنتزهات المهجورة في إحدى ضواحي طوكيو، حيث تزهر أشجار الساكورا. اعتادت سلمى أن تذهب هناك بعد محاضرات الماجستير في الأدب الياباني، وتتوغل في عالمها الذي أصبحت تبحر فيه إلى شواطئ الروعة، ولا تعود. وهناك.. حيث جلست تقرا سيرته وتراءى لها شبحه في آخر مرة.

تلكأت في طرقات المنتزه التي تحفظها عن ظهر ولع، طرقات شهدت معارك في أزمنة غابرة، وذكريات لمن مروا وتركوا عطرًا للأيام، تركوا وهجا لا ينطفئ، عادت سلمى لأنها أرهفت السمع لندائه، ذاك المحارب الذي لايفارق وجدها، عادت لتستعيد قلبها الذي غادرها على تلك التلة.

كانت قدماها تتعثران وهي تتلمَّس طريقها إلى أعلى التلّة المقابِلة، علها تراه بوضوح أكثر، جثا على رُكبتيه، وحرّر تنّينَهُ القابع تحت قدميه، فطار بعيدًا مُطلِقًا صيحاتٍ متتالية، وقد اختبأت الشمس وراء جناحيه، أم أنَّهُ أطفأ

الشمس وابتلعها في رفرفة جناحيه المتعاظمين ! ولكنه ما لبث أن اختفى في العُمق كأنه بُقعة حبرٍ أسود على صفحة السماء. حاولتُ أن تقف على قدميها المرتعدتين، تبتلعُ مرارة الخوف في حلقها علقمًا يتوغلُ فيها إلى حد الصدمة. كان لايزال هناك، ودرعه مُلقى بجانبه، مشرعًا سيفَهُ خاشعًا في صلاة، ثُم أطرق طويلا، قبل أن يضع نصْل سيفه قُبالة معدته.

تأوهت سلمى وهي تبتلع صرخةً أحرقتْ أعماقها، وجمدتْ أوصالها وهي ترنو إليه بعينين صارختين، آه.. رأيتُ خواء روحك، وكهولة وحدتك وقد مات الرفاق وطال المسير. رأيتُ في عينيك وعثاء السفر وغربة الأيام. تناثرتْ قطع البوح بيننا، فتغلغلتْ شظاياها في نفسي. عانقني وجعك، وضمَّ روحي حتى أحسستُ أني أنت. نسجتْ خيوطُ البوح بيننا جسرًا عبرت منه إليك. استجمعت بعضها، وركضت نحو التلة هناك، صارخة بكل ما أوتيت من وجع.. أيها الساموراي الأخير.. تشبث ببقايا الأمل المحترق فيك، اصعد إلى صهوة الوجع، ورَوِّضهُ واجعلهُ طوعًا لك، أيها العظيم .. عُد من تيه الفقد إلى وجوه الألفة، اخلع رداء الموت والتحِف بالخلود.

تناثرتْ كلماتها في فضاء الألم، كيف يموت البطل مصوبًا فوهة يأسه إلى صدورنا! يشدُّ أُذُن الحُلم فينا؛ لنستفيق.. مات الساموراي الأخير واقفًا كالجبال البعيدة، لنظل نختبئ وراء صموده ونظل نفتح صدورنا أمام سيوف

إصراره على اللحاق بركب من مروا. نتناثرُ بعدهم كقِطع الليل.. هؤلاء الذين رحلوا لكنهم لم يموتوا.

بعد أسبوع عادت سلمى إلى جامعتها وجلست تحكي لأستاذها الياباني.. وصلتُ إلى أعلى التلة التي كان يقف عليها، التقطتُ أنفاسي المتهدجة، وقد توهج الهواء في تلك البُقعة المقدسة. تلفت يُمنة ويُسرة، ونظرتُ تحت قدميّ، فخارت قواي.. رمْسٌ مطمور! مسحتُهُ بيديّ المتلهفتيْن، أستبين الحروف اليابانية القديمة التي أدرسها وأعشقها، قرأتُ بجلال..

أمِنَ المُمكن أن

يتناثرَ البَوحُ بيننا

فيصبحُ أنا أنت

و تُصبحُ أنت أنا!!

أمِنَ المُمكن أن تكتبَني

أن تقرأَ فصلًا عنّي

أن تجمعَ

مِن أطياف العُمر سنا

ربّت الأستاذ الياباني العجوز على كتفها وابتسم، وهو يشير إلى الكتاب القديم الذي تحتضنه بحنان بين يديها.. هناك أقدار ترسمها لحظات خالدة يا عزيزتي، أرواح تسكن الأماكن ولا تبوح إلا لمن يقترب ويرهف السمع، وقد

اختارك هذا الساموراي ليبوح لك؛ ولكن.. اعتدل في جلسته وهو يتكلم بأحرف مبعثرة المشاعر.. يبدو أنه قد سجنك في ذلك الزمان والمكان، أطرق وهو يهمس في وجل.. كم أشفق عليك يا صغيرة. غمغمت سلمى وهي ترفع إليه عينين متسائلتين.. تُرى هل سيعود؟ لقد عاودت الذهاب إلى تلك التلة مرارًا منذ غادرها على تنينه المهيب أتلمس طيفه، وأتنسم وجوده بين حنايا زماني هذا، فهل يعود؟!

فأنا أعيشُ رجعَ الأنين

ودفء الحنين

لِمن مَرّوا مِن هُنا

أعيش غربة الفقد

وأناتِ زمنٍ حزين

فلتعِش مشهدك

في عُمرٍ

أنت فيه السجين

والحَق بِركب من غادروا

فلَهُمُ العَنان ولك العنا

نظر الأستاذ الياباني في ذهول، وهي تكمل نظم القصيدة باليابانية وكأنها تلبست بروح ذاك الساموراي الأخير.

أطفـــأهـــا

أزهر قلبها ولعًا له، فزرعت صورتها بين جفونه. كانت عيناه شرنقتها التي خرجت منها بأجنحة كألوان قوس المطر، شفافة كقطرات الندى، منسابة كوثبات ظبي في مرج أخضر، تلقائية كابتسامة وليد.

عندما أغلق عليها عينيه ابتعد قليلًا، وقف متأملًا ملامح شخصيتها بين جفنيه ثم خلع رمشًا وبدأ يرسم به رتوشًا للصورة، ويضيف ملامح يتمناها حلمًا ويعيشها وهمًا.

أبحرت فيه إلى حد التيه وذابت في ملامح وجدٍ رسمتها له في حنايا قلبها، دارت في مداراته فكان شمسها التي تشعل فيها وهج الحياة. وانبلجت هي بين ذراعيه فجرًا منسابًا في طرقات ليل نعسان عاشته وتثاءب في عمرها قبل لقائه.

احتضنت عيناه صورتها؛ فغسلت دموع فرحه بعضًا من تفاصيلها. تأمل جمال إضافاته وغاب في ذاته بعضًا من جمال حقيقتها متناغمًا مع غروره. راح يتجول في أفكاره ويقطف أزهار غد لهما انتقاها بعناية تشبهه ولا تعنيها.

اطمأنت فانتظمت دقات قلبها وتناغمت مع إيقاع شوقها الذي كبر أشجارًا وارفة ظللت عليها حتى توارت فيها.. نعم توارت في عشقٍ دارت فيه

كدرويش ذاق الوصل، وحين تحب تكون أنتَ أنت، تتجرد من حذرك، تثق في عين محبك أنها ستحتويك، ستقبلك، وما الحب دون قبول!

فتح عينيه وبدأ يقارن بين ما صنعه في خياله وبينها. امتعض... فابتعد ثم بدأ الوهج يخبو. ارتعد أمام الصورة المغسولة بهدير الواقع الذي جرفه إلى قيعان حقيقية، فبدأ يجتاحها برياح غضبه ويلقيها في دوامات الحيرة.

وهي؟

كانت مستمرة – رغم حيرتها– في الدوران حوله كزهرة دوار الشمس تستمد إشراقتها من سناه الذي بدأ يخبو، وتتسول بقايا النور الهارب من انطفاء شوقه، ولا تدرك أنه ما أحبها يومًا، وإنما عشق رسمه ورتوشه التي صارت لها قيدًا يأسرها وقضبانًا تحجزها.

ذات غضب قالها بملء فيه:

- " انتهينا" لم يعد يغريه الإبحار في شلالات ولعها، وتناثرت بقايا صورتها في أرجاء روحه؛ فاصابتها شظاياه بجراح لا يُرجى برؤها، ببساطة أطفاها، كبقايا سجائره في منفضة الأيام.

كقوقع لفظه بحره إلى شاطئ غريب استلقت تعاني دوار الخذلان، تتقيأ ذاتها التي كرهها هو فكرهتها هي.

كم مر عليها من الوقت وهي ملقاة في صحراء الخذلان! مغمضة الحواس مخدرة الروح، تحاول أن تهرب من رمال الوجع فتغوص فيها أكثر. كم

مر عليها من الوقت قبل أن تتحسس خواء صدرها! تتلمس موضع القلب فتحترق أصابعها بحرارة رماده. ولا تدري متى جرفتها الأمواج إلى شواطئ القسوة فتحجرت كصخور الشاطئ الملقاة بلا مبالاة تحدق في موج يصفعها بلا هوادة دون أن تحرك ساكنًا.

لم تعد كما كانت، فقدت قلبها بجرحه وأصبحت تتجول في ليل أيامها بلا وهج يعيدها قيد الشغف. أطفأها فتقوقعت على شاطئ الوجع، ثم تحجرت مشاعرها وبهتت ألوان الفراشة. التقت بوجهها مصادفة في المرآة فرأت حطامًا لامرأة، لم تعجبها الصورة فحطمت المرآة. بكت طويلًا، ذرفته دمعًا وأخرجته من رئتيها صراخًا وحطمته مع صورتها في المرآة. أخرجته منها فماذا بقي منها بعده؟ ذاك القوقع الصغير الملقى على أعتاب الموج يحتمي بقوة صخور الشاطئ ولكنه لا ينتمي لأحدها، هذا القوقع الصغير لم يعد ينتمي لأحد، ولا لنفسه. هذه الفراشة الباهتة لم تعد تذكر ألوانها الزاهية. انطفأت... أطفأها.

عندما هدأت عاصفة روحها، تلمست موضع القلب فلم تحترق بحرارة الرماد؛ فلم يعد هناك رماد تحترق به؛ بل أحست برفرفة جناح الطائر الذي تحرر من سجنه، ويستعد للتحليق بها عاليًا. ابتسمت في وهن، وتساءلت في أمل، ربما تعيد الفراشة ترميم جناحيها وتستعيد ألوانها الغاربة، هذا القوقع سيتعلم كيف يطير!

سؤال جديد

كانت أوقاتا رائعة، امتلأت بها طفولتها حتى فاضت بالوهج، وتركتها متخمة بالذكريات إلى حد الوجع، تركتها تتأرجح بين زمان يعرفها يحتفي بضحكاتها ويربت على أحلامها، وزمان آخر يعرف كيف يبقيها مقيدة إلى عقل يتململ من روح لا تهدأ رغم كهولة اللحظة وعرج الأيام. يتعكز يومها الأبكم على أمسها الأصم، ويقتات حلمها على رغبتها في النجاح كزوجة وأم فيبقيها على قيد الأمل، رغم دوامات الخذلان التي تدور فيها حول نفسها مع أسرتها بعد زواجها، بين زوج لا يأبه وابنة لا تهتم. لم تعتد هذا الجفاف في أسرتها قبل زواجها، اعتادت أن تحكي تفاصيل يومها لوالديها ولها رصيد من الحكايات والنصائح؛ ولكنها اليوم في منزلها حبيسة وحدة قاسية، كأنها استنفدت أوقات السعادة والتفاهم في حياتها الأولى، أما في هذه الحياة فعليها أن تتفهم انغماس زوجها في عمله، وعليها أن تسلم بأنها تنتمي لجيل مختلف لن يتفهم احتياجات جيل ابنتها وتفكيرهم المختلف. لطالما تساءلت بينها وبين نفسها عن إكسير النجاح الذي تناوله أبواها ليعطيهما المودة الدافئة والزواج الناجح والابنة المُحبة، ولكنها بكل الأحوال فشلت في الحصول على هذا الإكسير، فكان نصيبها الرضا بما قسم الله ومحاولات هزيلة لإسعاد نفسها وأسرتها.

سارت طويلًا في أروقة عقلها تفتش عنهما، ثم انحنت تلتقط ذكريات عيد بعيد، وكان أبواها هناك. شعرت بطعم الحلوى في حلقها الجاف والذي تخترقه أنبوبة حنجرية تشق الطريق بين أحبالها الصوتية فتخرج أهاتها مبحوحة كغريق يصرخ في الماء فيحتفظ لنفسه فقط بحق التعبير بملامح متألمة مذهولة بلا ضجيج. دومًا تقسم أنها تتنسم رائحة أعواد البخور كلما تذكرت أبويها، والآن هاهو ذات العبق يغمرها رغم رائحة غرفة العناية المركزة التي لا تخطئها أنف، مزيج من رائحة الموت والكلور. لم ينقطع بينها وبينهما حديث منذ رحلا، واليوم جاءت لأبويها بسؤال مختلف وقد دأبت على سؤالهما..

- متى تأتيان لأخذي؟

علت أصوات أجهزة المراقبة المتصلة بجسدها النحيل الملقى على السرير منذ أسبوع، بعد أن أعلن قلبها العصيان، وضاقت شراينها بما احتملت، اقتربت ابنتها التي اعتادت أن تجلس بجوارها صامتة في مواعيد الزيارة التي لا تتجاوز الساعة صباحًا ومساءً، ثم تبقى هي بقية يومها في وحدتها المظلمة إلا من بعض خيالات النور التي تتسلل خلف جفنيها المغمضتين مع أصوات الممرضات التي توقظ الأموات؛ ولكنها لا تنجح في انتشالها من غيبوبتها.. غيبوبة بفعل فاعل، فقد آثر الطبيب المعالج أن يبقيها غارقة في المسكنات حتى تعبر دوامات الخطر، وحتى يستعيد قلبها المنهك بعضًا من عافيته بعد انهيار كل دفاعاتها مرة واحدة.

للمرة الأولى تحدثت إليها ابنتها منال بعد أن أمسكت يدها وضغطتها برفق..

- أمي أرجوك قاتلي من أجلي، عودي.

هل حالتها حقًا بهذا السوء؟ للدرجة التي أخرجت منال من صمتها الذي اعتادته في منزلها وقد خلقت لها عالمًا حقيقيًا خارج باب منزلهم تستعيده في غرفتها؛ ولكنها لا تشاركها ولا تشركها في تفاصيل يومها أبدًا. تتذكر حين اقتربت من باب غرفتها تتسمع همهماتها وبكائها المكتوم.. هل هناك مشكلة في جامعتها؟ أليس صدر أمها أولى بتلك الشكوى من صديقتها!

في الصباح كانت قد عزمت على البحث في أشياء ابنتها وقلبها يصرخ بخوف لا تعرف كنهه ولكنها تدرك تمامًا أن هناك شيئًا مخيفًا ينتظرها، سيطل بوجهٍ قبيح على أيامها، في ظل ما استشعرته من تغير سلوك ابنتها الملحوظ؛ فتحت أدراج مكتب ابنتها منال بهدوء وبحرص من يفتح خزنة أسرار؛ لكنها قد تنفجر في وجهه. تذاكر حفلات، تذاكر سينما، صور كثيرة لها مع صديقاتها في الجامعة، ظرف وردي.. فتحته؛ لتخرج مجموعة من الصور مع.. من هذا الذي يحتضن ابنتها بحميمية؟ قبلات وأحضان! في أماكن مختلفة وأضواء خافتة وشموع..

انسابت دموعها على وجنتيها حتى بللت الصور في يديها المرتعشتين.

- أهذه ابنتي أنا؟! غمغمت في حزن بدأ يشتعل غضبًا في نفسها.. ماذا فعلت بنفسك يا منال؟

عادت ابنتها من الجامعة متأخرة كعادتها، وأمها مازالت على جلستها على طرف السرير والصور مبعثرة في كل أنحاء الغرفة، ورسائل هنا وهدايا خاصة جدًا هناك، وأمها تحدق شاردة في المجهول. اقتربت ابنتها منها في حذر، ثم بادرتها بسؤالٍ فجر براكين الغضب في أعماقها..

- أمي! من سمح لك بالتفتيش في غرفتي؟ هذه أشيائي الخاصة.. ليس من حقك.. ولكن قبل أن تكمل جملتها الغاضبة، هبت سامية مسرعة وقبضت على ذراع ابنتها وأجلستها في عنف..
- ماذا فعلت بنفسك يا منال؟ عاودت منال محاولتها في إلهاء أمها كعادتها:
- لماذا تفتشين في أشيائي؟ أنا لست صغيرة. صاحت فيها سامية في غضب..
- كنت أظنك فعلًا قد كبرت ولكنك للأسف استغللت مساحات الحرية التي وهبناك إياها بشكل خاطئ، من هذا الشخص يا منال؟ وألقت بمجموعة من الصور في وجه ابنتها.. أخفضت منال وجهها لبرهة ثم رفعت وجهها في تحدٍ سافر..

- هذا صديق، مجرد صديق. لم تتمالك سامية نفسها وصفعتها بقوة أسالت الدماء من شفتيها، انتفضت منال في ذهول..
- كيف تضربينني..؟ انظري ماذا فعلت بي! وهي تمسح الدماء التي سارت بخط متعرج على رقبتها. أغمضت سامية عينيها وهي تجاهد دموعًا تطل من جفنيها، ممزقة هي بين أن تحتضن ابنتها وتمسح عنها تلك الدماء وبين أن تزيدها بصفعات أخرى تستحقها عن جدارة. أخرجت ورقة صغيرة من جيب ردائها، ألقتها في وجه ابنتها وهي بالكاد تستطيع التنفس، فخرجت حروفها مبحوحة تتعثر على شفتيها المرتعشتين..
- صديق؟ مازلت مصرة على الكذب.. وورقة الزواج العرفي هذه، ترى هل تخص صاحب الصور أم هي لآخر؟ تكلمي؟ كيف جرؤت؟ كيف تساهلت في شرفك لهذا الحد.. تحولت إلى لعبة في يد فاجر يستبيح عرضك وروحك بورقة؟ مجرد ورقة؟ أين كان عقلك؟ أين كانت كرامتك ودينك وتربيتك؟ لم تقوَ منال على الوقوف أمام أمواج المفاجآت المتلاطمة التي ألقتها فيها أمها.. فابتلعتها دوامات الهلع والرهبة منها. تلعثمت منال وهي تنفي التهمة عن نفسها..
- لم يحدث شيء.. صدقيني، أنا لم.. وانهارت في نحيب وبكاء. هزتها أمها في هلع:

- أخبريني كل شيء. ماذا فعلت بنفسك يا منال؟ ارتمت منال في أحضان أمها وهي ترتعش:
- صدقيني لم أفعل شيئًا.. أزاحتها أمها ونظرت في عينيها بحدة.. ذهبت معه لمنزله.. أليس كذلك؟ لا تكذبي.. كل الصور تشهد عليك يا فاجرة..
- لا لا يا أمي صدقيني. نعم ذهبت معه لمنزله في غياب أهله؛ ولكن لم يحدث شيء صدقيني.. لم أسلمه نفسي. أزاحتها سامية من حضنها بقوة وهبت واقفة،
- أنت خنتني يا منال، لم أتصور أن يصل الحال بابنتي لهذا الانحدار وتلك الهوة السحيقة التي ألقيت فيها نفسك بإرادتك الحرة، هذه الحرية كانت وبالًا عليك واخسارتاه. نهضت منال وبالكاد تستطيع الوقوف على قدميها..
- أنت تهولين كل شيء كعادتك، لأنك لا تفهمين جيلنا، لماذا لا تصدقيني أقسم بالله أنني لم اسلمه نفسي. التفتت إليها سامية في غضب..
- أسلمته روحك، ورضيت بأن تدعيه يكون أول من يكتب اسمه على جسدك بأصابعه القذرة، رضيت لأنفاسه المقيتة أن تسكن حناياك، وستظل ذكرياتكما معا تطاردك في حياتك، ماذا تنوين أن تفعلي بهذه

العلاقة الآثمة التي نبتت في الظلام كشجرة الخطيئة ولن تنالين منها إلا علقمًا وأشواكًا تنزفين عمرك ثمنًا لها. تهالكت منال على السرير من جديد..

- أمي لقد انتهى كل شيء.. تقابلنا منذ يومين وعندما أصررت أن لا أسلمه نفسي إلا عندما تصبح علاقتنا في النور ثار وهاج ومزق الورقة، وطردني من منزل أهله. أحست سامية بالغثيان، أرادت أن تقيئ الهوان الذي ذاقته ابنتها، والعار الذي ألحقته بنفسها وعائلتها والخذلان الذي ينشب أظافره في صدرها. تعالت دقات قلبها حتى أصمت أذنيها، لم تعد تسمع ابنتها وهي تجتر ذاكرة الوجع الخاطئ، حتى اعتصرها الألم وألقى بها إلى أرض الغرفة وسط صور الخطيئة والضياع التي ملأت غرفة ابنتها.

يقفان في حلمها وعلى وجهيهما نظرات عتاب وأسف، هكذا كان طيف أبويها الراحلين يزورانها منذ أن دخلت العناية المركزة، ولا يجيبان على سؤالها الجديد الذي يفجر سلسلة من الأسئلة كحمم البركان تشعل في خاطرها نارًا لا تهدأ تحرق بلظاها كل الطرق العائدة بها إلى الحياة مرة أخرى..

- هل أخطأت في ثقتي التي وضعتها في غير محلها؟ هل تاه مني الأمل في شعاب اليأس واستسلمت لدوامات البعد بيننا، فأحاطت بها ذئاب الخطيئة تنهش في لحمها الغض وتزين لها الحرام أنه عادي ومقبول

في هذا الزمن؟ هل لنا من عودة؟ أنا وهي؟ هي بضعة مني.. تحتاجني، ولكنها كسرتني.. كسرت ثقتي بها وحبي لها، آه يالوجعي منها. كيف أسامحها؟ كيف اسامح نفسي. ضغطت يد ابنتها التي ضمت يديها في حنان، وارتسمت ابتسامة باهتة على شفتيها الجافتين.

رسالة من العالم السفلي

كعادتي مؤخرًا، أمشي وأنا أنقل بصري بين الطريق وأختلس نظراتٍ لهاتفي، كان الظلام يطبق على آخر خيوط الشمس الراحلة نحو المغيب، عندما غادرتُ عملي مسرعًا، لألحق بموعدي معكِ في ذاك اليوم، انتظرت قليلًا ثم سحبت نفسًا وكتمته وأنا أتنقل بخفة بين السيارات التي استحالت أمامي صخورًا يتقاذفها نهر الطريق نحوي، أطلقتُ الهواء الحبيس في صدري بعد وصولي للجانب الآخر من الطريق العريض، أخرجت هاتفي من جيبي مجددًا؛ ولكن هذه المرة لأستعين بإضاءته في البحث عن سيارتي في المكان الذي تركتها فيه صباحًا. كان السكون مطبقا كأن العالم قد أصابه الخرس، انسحبت كل الأصوات مع الظلام الذي صار يلف المكان بعباءة ثقيلة سحبت معها الهواء في هذه الليلة، طمأنتُ نفسي بأن عينيّ ستعتادان الأمر حالًا، وأن الضوء الخافت من هاتفي سينجح في إيصالي إلى سيارتي فأخرجت سلسلة مفاتيحي ولم أنتبه إلا وقد جذبتني إليها حتى ألصقتني بالجدار، من أين أتى هذا الجدار! أوجعت ظهري وأفزعتني؛ فأطلقتُ صرخة ألمٍ وذهول.. فإذا بها تضربني على صدري براحة يدها الوارفة؛ فكتمتُ صراخي وارتعدتُ متسائلًا..

- من أنتِ؟ قبل أن أُكمل جملتي كانت قد ألصقتْ يدها على رأسي فأحسستُ ببرودة كفها في دماغي. اقتربتْ من وجهي وحملقتْ فيّ

حتى توغّلت نظراتها في ذرات كياني وأحسستُ بها كريحٍ باردة تنسل إلى طرقات روحي، سرت في أطرافي رعدة فلم أعد أقوى على حمل جسدي المتهاوي في دوامات ارتجاف عنيفة، وهويت على الأرض ممددًا وقد أصابني شلل كامل وأنا أحس بثقل فوق جسدي.

كأني أحلم! ولكن كيف وأنا ملتصق بالأرض الرملية في هذه الساحة الخربة على جانب الطريق! شعرت بإنهاك شديد ربما من تلك اللحظة المرعبة التي أعيشها إلى الآن أو من البرودة التي سرت في داخلي فتجمدت الأفكار في عقلي المتخم بالأسئلة؛ أين ذهب الزحام؟ ومن ينقذني من تلك المخلوقة؟ ثم انسلت مني فأحسست بألم وكأن ضلوعي قد انبعجت. كنت أسبح في حيرتي ودقات قلبي تصم أذنيّ، ثم ناديتها مجددًا

- من أنتِ؟ وماذا فعلتِ بي؟

اتكأتُ على وهني وجلست وأنا ألهث، وأهتز باكيًا من قلة حيلتي وذهولي. ضحكت هي حتى غلفني صوتها في بلورة شفافة كقطرة ندى ثم امتلأ الفراغ بيننا بضباب بارد. ما أن التقطت أنفاسي حتى عادت فضمتني حتى اختلفت ضلوعي واختنقت الكلمات في جوفي فخرجتْ هذيانًا محمومًا، وكأني كنت أتمتم كمن به مسٌ، لا حكم لي على كلماتي ولا جسدي.. ثم تركتني رويدًا رويدًا.. فتنفستُ في وجع وأسندتُ يديّ على ركبتيّ ثم رفعتُ إليها عينيْن زائغتين دامعتين، لا أكاد أستبين ملامحها، كيف لها بهذه القوة وهي تبدو

نحيلة؟ شعرها بلون المغيب الدامي ينساب كحريق إلى قدميها. احتضنتْ خوفي بنظرات حنانٍ بعد أن مالت بجذعها وربتت على كتفي وقد تغيرت ملامح وجهها إلى مسحات الرضا. وهمستْ في رَوعي بشبق وصوتها فحيح أفعى تتلوى أمامي..

- أنتَ لي.

نهى أرجوك ساعديني، أخرجيني من هنا، أنا لن أحتمل أكثر، أريد لهذا الكابوس أن ينتهي، وهو لا ينتهي، أرجوك انتشليني من هذا العالم المخيف.

شهقات وانهارت نهى باكية أمام وكيل النيابة وهي تكمل حكايتها له..

- لم أعد أستطيع الاحتمال أكثر، أنا لا أنام يا سيدي، فسامح يقص علي هذه القصة في كل مرة أسلم فيها جفني للنوم، حتى بت أخاف أن أغمض عيني. لا أدري كيف أساعده ولا كيف أساعد نفسي، ليته يخبرني إلى أين أخذته هذه المخلوقة.

هز وكيل النيابة المكلف بالبحث في قضية اختفاء سامح منذ شهرين رأسه وقد زم شفتيه أسفًا، ثم قال وهو يناولها كوب الماء..

- أعذريني أستاذة نهى، لا أعتقد أن بإمكاني مساعدتك، لا أستطيع أن أبني بحثي وتحرياتي على أحلام، ولا أرى تفسيرًا لهذه الرؤيا التي تتكرر كما تقولين غير أنك لا تحتملين شعور الفقد، ربما يصور لك عقلك أنها رؤيا، نوع من التهيؤات النفسية التي تبقي سامح خطيبك

على قيد الحياة في عقلك، وتبقيك على قيد الرجاء أن يتجدد اللقاء. كما أخبرتك مرارًا، وجدنا هاتفه بجوار سيارته ويبدو أنه قد تم اختطافه فعلًا ولكن ليس هناك أي خيط يوصلنا إلى مكان اختفائه. لا أريدك أن تفقدي الأمل ولكن ربما تحتاجين إلى التحدث مع طبيبك النفسي بشأن هذه الكوابيس؛ لكنه توقف فجأة عن الكلام محدقًا في ذراعها الممدودة لأخذ كوب الماء من يده، ثم انتفض مزيحًا كرسيه بسرعة وقام ليجلس أمامها:

- ماهذه الخدوش على ذراعك؟

أطلقت نهى زفرة ألم مكتومة ودفنت وجهها بين كفيها، ثم أزاحت قميصها لتريه آثار جروح غائرة على ذراعيها..

- أستيقظ كل صباح منهكة، وفي جسدي آثار لخدوش متفرقة، أنا لم أفعل ذلك بي صدقني ولا أدري من يفعل هذا بي!، أرجوك ساعدني قبل أن تقتلني هذه ال.. اتسعت حدقتا وكيل النيابة وقد مال بجسده للأمام ثم سأل نهى في استغراب عمن تتحدث؟ أطرقت نهى وابتلعت ريقها ثم قربت ذراعها الأيمن من وكيل النيابة.. الذي بدأ يصل الخدوش ببعضها لتتشكل حروفا، ثم يجمع الحروف في كلمات قرأها في تأن.. وكأنها رسالة من العالم السفلي.. س ا م ح.. ل ي.. أ ن ا.

مسبحة الشيخ بهيّ الدين

" السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. إنتِ فين يا حاجة؟"

فتح النافذة ليجدد الهواء داخل منزله الصغير؛ المنزل الذي يتسع رغم صغره لكل مشكلات سكان الحي الذي يقطنه، ويستوعب تجمعات الأبناء وركض الأحفاد، وهذه النافذة هي صلة زوجته بالعالم، بعد أن أقعدها المرض وكبر السن.

طوال عشرين عامًا من الزمن الجميل، كما يحلو للشيخ بهي الدين أن يلقبه كلما تحدث عن درسه في جامع الحي الذي يقطنه، حرص الشيخ على أن تكون له نفس الإطلالة المسائية على زوجته بعد عودته من صلاة العشاء وبعد حديث العشاء الذي يلقيه يوميًا بعد الصلاة، والذي تحول للقاء عائلي بينه وبين زوار المسجد الذين ألفوا الشيخ وألفوا قفشاته وطيب كلماته ونصائحه التي يغلفها بعبق البسمة الرائقة التي تزين وجهه.

جاء رد زوجته الحاجة عليّة من داخل المطبخ:

- وعليكم السلام رحمة الله وبركاته. أنا هنا يا حاج. الشاي جاهز

جاءت زوجته تمشي بحذر وهي تحمل صينية الشاي، وتحمل ثقل جسدها على ساقين أثقلهما السن.

- فين البسكويت يا حاجة.. دا أنتِ بتاخدي درس خصوصي في البيت.. أقلها يعني بسكويت مع الشاي. أطلق الشيخ ضحكته المجلجلة.. فاستضاء وجه الحاجة عليّة بضحكتها الخافتة وسارعت تخبئها بطرف غطاء رأسها..
- يوه يا حاج.. دا انت بتكسب فيا ثواب.. يا ريت أقدر أنزل أصلي واسمع درسك زي زمان.. يللا.. الحمدلله.

اعتاد الشيخ بهي أن يعيد درسه بحذافيره لزوجته الحبيبة مضيفًا إليه تعليقات الحضور والوصف التفصيلي لوجوه الصف الأول.. منتهى مدى رؤيته

- انهاردة يا ستي اتكلمنا عن الإخلاص والإحسان و...

أشاحت الحاجة عليّة بوجهها وأطلقت زفرة، مسحت ملامح الطمأنينة من وجه الشيخ الذي بادرها قائلًا:

- خير يا حاجة؟ فيه إيه؟

رفعت إلى وجهه الحائر عينين غارقتين في الدموع:

- يا حاج انت معظم اللي بيحضرولك شباب والجيل دا ما يعرفش الإحسان.. لا بيذاكروا بإحسان ولا بيتعاملوا بإحسان.. دول حتي ما بياكلوش بإحسان! اعتدل الحاج بهي في جلسته وقطب جبينه..

- لا يا عليّة.. الولاد دول فيهم خير.. شوفي.. التعميم مرفوض تمامًا

قرر الحاج بهي أن يقف في وجه أمواج السلبية المتلاطمة التي أرسلتها الحاجة عليّة..

- احنا أمة بتجدد نفسها وكل زمن فيه الكويس وفيه الوحش، لا دا أصلا كل واحد فينا فيه الكويس وفيه الوحش... الإنسان يا عليّة زي الفضة يمكن يبقي عليه طبقة أكسدة رمادية وكئيبة، بس لما يشرق قلبه بالقرب من ربنا، يااه.. يرجع يلمع ويبرق.

انزلقت مسبحة الشيخ من يده، وانطلقت هاربة أسفل الكرسي. انتفضت الحاجة عليّة:

- يووه.. سبحتك يا حاج. كانت تدرك غلاوة مسبحة الحاج بهي، فهي لا تفارقه منذ عودته من رحلة الحج منذ أكثر من خمسة عشر عامًا، والغريب أن رائحة المسك فيها لا تخبو أبدًا حتى يخال إليك أنها تتعطر من يده.

معًا يدًا بيد أزاحا الكرسي ليصلا إلى المسبحة. شهقت الحاجة عليّة وقد هالها ما رأت من التراب المتراكم أسفل الكرسي. نظر إليها الشيخ بهيّ بحنان وربّت على كتفها..

- معلش يا حاجة.. كلنا محتاجين ننضف أركان نفوسنا.. محتاجين نزق الكنب اللي في قلوبنا ونشوف تحته إيه.

لقـــاء فـي المغـيب

كشجرة وحيدة كانت تحترق في خريف العمر، وقد تعلمت أغصانها أن تنحني لتربت على وجعها، وتعلم جذعها أن يكف عن البحث عن دفء الشمس الراحل دومًا نحو مغيب بارد، فحفر تعاريجًا لا تفرط في الدفء أبدًا، وخلق تجاويف لسلامها الداخلي، تحتفظ به في روح قلبها وإن بدت بلا روح ..

فرش الشتاء بياض ردائه، وتوغل في روحها شيبًا يغزو طرقات روحها الخاوية، فامتدت جذورها عميقًا لتبقيها ثابتة في وجه رياح القلق، بعد أن فقدت سندها وتزعزعت تربتها، رحل من رحل وهاجر من هاجر من الأحبة، كانت عطشى لأمطار تروي روحها المنهكة، ولكن الأمطار كانت أقسى من الريح، تآمرت على أوراقها، كانت تحسبها غيثا، فإذا هي شركًا يحمل أوراقها إلى الأرض وتتركها قطراته بلا رواء، ظلت بعدها تمد فروعًا عارية إلى السماء.

كشجرة وحيدة هي تتدثر بحلم ربيعي، لعلّ أغصانها تكتسي يومًا بأوراق الفرح، كانت كل مغيب تراقص أحلامها على وقع كونشرتو الوجع، ولكنها اليوم اعتذرت من انتظارها وعادت إلى طاولة اليأس.. ماعادت تقوى على التهادي بين ذراعي الانتظار، حنينها لما يرسم زهور البهجة على أغصان أيامها، ولكنها ما عادت ترسم أوراقًا من وحي خيالها، فحفيفها يخيفها ليلًا حين لا يبقى إلا هي وبقايا ذكريات في منفضة أيامها. هذه الأوراق ليست

حقيقية، همهمت لنفسها بيأس.. تمامًا كابتسامة العابرين في محطات العمر، يهوّنون الطريق دون انغماس في المشاعر، يلوكون الإجابات الجاهزة كقهوتهم الباردة على الطرقات. ماعادت تحتسي ألمها مع أحد، اكتفت بطاولة وحيدة في ركن منزلها الذي أصبح كل عالمها.

تساقطت أوراق الوهج وقد بدأت عباءة الليل تلف قلب النورس الذي يسكنها.. كيف لنورس جسور أن يترك شاطئه ويرحل إلى غابات السكون الذي تعيشه ويعيشها! لابد أنه أضاع شغفه وفقد بوصلته ورضي بحياة الأشجار، أم أن البحر علّمه أن يقف ليتأمل طويلا قبل أن يمضي من جديد.. أيعقل أن كل الأشجار تسكنها أرواح النوارس؟! لحظات للتأمل ثم تفرد أجنحتها الرمادية وترحل من جديد! كان عليها أن تطرد تلك الفكرة من رأسها الليلة.. وكل ليلة، وتكتفي بأنها الآن، الشجرة الوحيدة التي تسكنها روح نورس يعيش وحيدًا في غابات الفقد.

ولكن المغيب هذا اليوم كان يبدو مختلفًا، ألوانه كانت زاهية.. كدماء جديدة يضخها الشفق في عروقها المتجمدة، لا لم يكن كعادته كئيبًا، لم يعلن الليل حداده على الشمس ولم يتشح بالسواد سريعًا، ظلت الشمس تصارع طويلًا حتى ضرّجت بدمائها الأفق، كانت روح النورس فيها تستيقظ رويدًا رويدًا، فتحت عينيها تراقب المشهد المهيب، حملت فرشاتها وغمستها في الأفق،

وراحت تعيد تلوين الهواء بدفء اللحظة، ضيّقت عينيها تحدق في صورتها في مرآة ذاتها، آه.. كم صرنا غريبين يا أنا! بعيدين كسماء لا تعانق أرضها. كانت أشرعة الشمس تُطوى، وأمواج الليل تضرب سماءها، أخفضت عينيها، ولكن النوارس لا تهاب الليل، تحمل نورها تحت جناحيها، تصاحب وجع البحارة وتروي عطشهم للأرض، النورس يهدأ ليتأمل ولكنه لا يسكن الشجر، أما آن لهذه الروح أن تتحرر؟! أما آن لك يا أنا أن تستأنفي رحلتك إلى شواطئ لا تنام؟ بالكاد أتعرف ملامحك يا قلب النورس، بالكاد تشبهين ألواني القديمة التي اعتدت أن أنثرها على بياض الصفحات، فتتلون أيامي بوهج اللهفة، وتستنير سمائي بنجوم الشغف، ولكن المغيب اليوم يذكرني بروعة البدايات، منذ متى لم نلتقِ يا أنا؟ منذ أن رحل الأحبة وارتضيت حياة القواقع على شواطئ الوحدة.

فتحت نافذتها التي ظلت مغلقة لأعوام وبدت كنورس وحيد على صخرة بعيدة، أخذت تحدق في النوافذ المقابلة، قد اعتادت في وحدتها أن ترسم وجوهًا للأصوات الآتية منها وتكتب قصصًا لأصحابها، مما تجمعه من ملامح المشاعر المتطايرة مع أصواتهم. شعرت بنسمات الهواء تعيد لوجهها الحياة، كانت تقف هناك كشجرة تنتظر الطيور؛ لتبني أعشاشها على أغصانها، كيف وهي قد فقدت كل أوراقها في الخريف! ولم تعد تغري بالود، وضعت يدها

على صدرها، إيه يا قلب النورس، أما زلت تنبض بولع البحر وشوق الأمواج للعناق مع رمال الشاطئ؟.

كنورس عنيد يحلق تحت ستارة الشمس، ويخرج من عباءة البحر، حملت حقيبتها الصغيرة وفتحت باب شقتها للمرة الأولى بعد سنوات، منذ أن دفنت ما تبقى منها في نفس القبر الذي ضم زوجها الراحل، خطت بضع خطوات، فقابلها حارس عمارتها مذهولًا، متسائلًا إن كانت مريضة وتحتاج من يصطحبها إلى الطبيب، هزت رأسها بعصبية وخرجت من باب البناية التي تسكنها، رفعت رأسها تتأمل النوافذ التي كانت تراقبها وأصبحت صديقة لأصوات أصحابها، أصوات بلا وجوه! هاهي تستعيد حواسها التي ذبلت وابتسامتها التي أصابها الصدأ. ولكن دقات قلبها أوقفت أقدامها على عتبة البناية، كطفلة تهاب الموج تراجعت سريعًا لاهثة. عادت تجرجر أوجاعها، تصعد درجات هزيمتها في محاولة الطيران الأولى منذ سنوات، وقد اعتادت أن ترسل وريقة صغيرة باحتياجاتها مع حارس البناية وكفى. قابلتها طفلة جارتهم الصغيرة التي تخطتها راكضة ثم التفتت لها باسمة..

- سبقتك. ابتسمت لها وتهللت لكلماتها الصغيرة، لا تدري متى كانت آخر الحوارات التي أجرتها مع لحم ودم، اعتادت الكلام مع الصور ذات الأطر الفضية التي تجمعها مع زوجها الراحل:

- لم يكن هذا اتفاقنا. كانت دومًا تبدأ حديثها مع الصور بتلك الجملة، أعادها هذا الوجه الصغير الذي يحدق فيها من رحلتها إلى ذكرياتها، تساءلت الصغيرة مرة أخرى إن كانت تسكن هنا، فهي لم تلمحها من قبل، هزت رأسها أن نعم، وهي تبحث عن مفتاحها في حقيبتها الخالية إلا من ذلك المفتاح ونظارة القراءة الخاصة بها وبعض الجنيهات المتناثرة في قاع الحقيبة، بدأت تتوتر ويدها المرتعشة تغوص لقاع الحقيبة ولا تجد المفتاح، بدت كشجرة حقيقية تيبست في مكانها أمام باب شقتها، بينما لاحظت الصغيرة ارتباكها فوقفت بجوارها تطمئنها بتربيتة على يدها، ثم مدت يدها لها بقطعة حلوى:
- اتفضلي. "بومبوني" أسندت يدها على الباب ويدها الأخرى على صدرها، وتفصدت حبات العرق على جبينها مع نوبة الفزع التي انتابتها وهي تعجز عن العودة إلى قوقعتها، استشعرت الصغيرة تعب السيدة العجوز، فقفزت الدرجات لتنادي أمها من الطابق العلوي، التي جاءت راكضة بعد ثواني تجرها يد الصغيرة.

لحظات مرت طويلة، وهي تعنف قلب النورس الذي جرها خارج قوقعتها، وقد أصرت جارتها الشابة على اصطحابها لشقتها، ووقفت بدلا منها مع حارس البناية حتى يحل مشكلة نسيانها المفتاح داخل شقتها. جلست

الصغيرة بجوارها تربت على تجاعيد يدها وعروقها النافرة، ورفعت إليها عينين رحيمتين وهي تقول:

- ما تقلقيش أنا معاكِ. كانت تستشعر في ملامحها وجه جدتها الراحلة. لحظة هشة مرت بينها وبين تلك الصغيرة، تهشمت فيها دفاعاتها كقطع البلور، فانهارت في بكاء صامت، احتضنتها الصغيرة وهي تقول لها:
- تعالي نخرج نتمشى لحد ما يخلصوا، إيه رأيك؟ الشمس لونها حلو قوي انهاردة...

وداع ليلـى

أناخَ مَطِيّتُهُ في بيْداءِ الوَحشة مُتسَربلاً في وجعِهِ، بَعدَ طعنةِ الفراق التي تركتْهُ مُضَرّجًا بِدماءِ الشَّوق. وحيدًا كان إلى حَدِّ البكاء، طريدًا مِن ذاتِه إلى تيهٍ كُتِبَ عَلَيْهِ بِلا إرادةٍ مِنْهُ ولا قبول. تَنهَّدَ قيس مِلءَ الأُفقِ البعيد وخَرَّ على رُكبَتيْه، غرسَ كَفّيْهِ في الرمال الحارِقة وأطلقَ آهةً شقّت عَنانَ السماء جَفَل لها فرَسُه واضطرب. أطرَقَ بِرأسِه وأزيزُ صدرِهِ يهُزُّ بدنِه المُرتجِف. هذيانُه يعلو باسمِها ويقطعُهُ نشيجَ بكائِه المكتوم. خضّب بِدمعِه لِحيتُه الشعثاء حتى رَوَى الأرضَ تحتَهُ؛ فأطفأ لهيبَ الرِّمال وأشعلَ وجعًا يضطرِمُ في مَراجِل روحِهِ. كناسكٍ كان يتبتَّلُ في محرابِ الشّوق، مُردّدًا أبياتَ عشقِهِ لها في خشوع، يدور في حلقات الوجد كدرويشٍ عرَفَ الأُنس واستسلم للوصل.

وفجأة، تنسّمَ في الأفق عبيرًا يعرِفُه، يحفَظُهُ عن ظهر وجْد، فرفَعَ رأسًا أتعَبَها الفِكر وأرهقها السُّهاد، أهيَ هيَّ؟ تلفّتَ مِلءَ شوقِه أتُراكِ جئتِ! ليلى؟ أم أن الحُمّى قد أشفَقَتْ عليَّ وأهدتْ إليّ السلوى في خيالاتٍ تُربِّتُ على انكساري! أتُراكِ جئتِ أم أنّ الريح الطيّبة حملتْ إليَّ مِسْك الولَع وعُود الروعة مِن مضاربِ خيمتك إلى حيثُ أهيمُ لتُهدِّئَ مِن رَوعِ الجوى.. أراني هالِكٌ دونَكِ يا ليلاي، وأراكِ رغم البُعد تتهادينَ في خيالي، كفَرسٍ عربية تختالين داخل أروِقة الحُلم، فأطربُ لِوقعِ خُطاكِ في روحي. ولكنّه انتصبَ واقِفاً،

ينفُضُ عَنْهُ حُلمًا لِيستقبل روعة الحقيقة. كانت ليلى بين نساء الحي تقتربُ من عين الماء، وعندما رأتْهُ تجمّدَ الهواءُ في صدرها، شهقت لهفةً وشوقًا. ثم سرعان ما أطرقتْ فأشرَقَ وجهها خجلاً، والنسوة حولها يتهامسْنَ ويتأسّفنَ لِحال قيس. وكيف أضحى شبحًا يهيم على وجهه في صحراء الفقد. اقتربَ مِنها هامسًا..

- ليلاي! فتنَحَّت النسوة بعيدًا وتركْنَها خلفهُن. كانت دقات قلبها تتسارع كُلّما اقترب خطوة منها، حتى أحرقتْ أنفاسُه حِجاب روحها وتداعت حصون صمتها أمام لهفتِه. رفعت إليه عيْنا عاشقة تفيضُ حنانًا ورقة..
- قيْس! كيف أصبحت؟ تعلّقت عيناهُ بعينيْها، فتوقف الزمان وأرخَت السماء ستائر الغيم لتُظلّل العاشقيْن وكأنّما حنَّ النهار لحالِهما فوهبهُما واحةَ لقاء في صحراء البُعد...

أصبحتُ لا أرى سُوى عيناكِ يا ليلى
فويْلي إذا غابتْ في البُعد عيناكِ
فكيف لصبحٍ في دياجير الجوى
وكيف لنورٍ بعد وهْجِ سناكِ

لم تستطع أهدابُ ليلى أن تحبسَ دمعةً هربت من عينيْها..

- يا لَوَجعي دونَكَ يا ابن عمي.. فديتُك بروحي ولكنّ الرحيل الليلة.. ولا أرى بَعد الرحيل لقاء.. أنا بعدَكَ قد وأدتُ قلبي.. وتلطّمتْ روحي بين شعاب القهر.. وما بقي من قطرات الحياة.. سأتجرَّعُها على مهل بطعم الموت.. فلا أمل في سعادةٍ بعيداً عن وصلِك، ولا منتهى لراحةٍ بعيدًا عن عذوبة كلماتك، وزادي في الرحيل ذكراك يا عُمري

ضرب قيْسٌ على صدره، فارتعدت كلماته ولفَّتْ حروفَه غلالةٌ مِن الدموع...

- أكان ذنبٌ أنني أحببتُك؟! فوالله ما لي من توبةٍ يا ليلى.. مالي من توبة.

عانقتها نظراتُه قبل أن تستدير مُودِّعَة، وهي تُجرجر ثوب الوجع، تمشِي إلى موت روحها المحتوم بعيدًا عنه.

ظلّت ليلى تحدق في كل نَبْع للماء تزوره، وتُقسمُ أنّها ترى قسمات وجه قيس فيه، وتقرأ أبياتا خطها لها وحدها.. فهو رَواءُ روحها من عطش الفراق

ويقولون أنهم رأوه في أودية الصحراء ينشد أبياته في حب ليلى يهمس في كل نَبْع.. يكتب على صفحة الماء رسائل لها.. لا يقرأها سواها

إبحار في صباحات التيه

الصباح العاشر...

تتسلل قطرات الضوء إلى عينيه فتغرقانه في يقظة متناغمة مع استيقاظ النوارس المتهادية فوق قاربه، كأشرعة بيضاء تحلق في فضائه السرمدي حيث يحتضن الأفق أديم المحيط ويندمجان معًا في رقصة بديعة يعزفها السراب المروي بعطشه لحلم الوصول.

تمدد على سطح قاربه يحدق في زرقة سمائه الصافية. ابتسم ابتسامة هزيلة ومن عينيه المتثائبتين تداعت الرؤى، انسلّت من قلبه المشتعل كجمرة ولع. كانت عيناها تحتلان الأفق بعد أن تساقطت أمامها مدن قلبه، وهمهمات النسيم تهمس له تُرى هل سكنت فورة غضبها لرحيله؟ ربما هي الآن تحتضن بعينيها ذات الأفق، تفتش عن أشرعة سفينته على أحرٍّ من الشوق تنتظر عودته.

يبتلع ريقه الجاف من الهواء المالح ويعتدل في جلسته، ليس بعد، سأعود عندما أكتب اسمي بشغف على جزر الوعد التي لم يطأها غيري

الصباح المائة

فتح عينيه الحائرتين وحدق في وجه الصباح المروي بعطشه لها. يوم آخر بعيدًا عن صباحات وجهها الباسم، يوم آخر يرتجف بردًا في خوائه دونها، يوم آخر ولا يدري كيف سيعبر فيه سراديب الشوق وحده دون أُنسٍ بصوتها وسمرٍ بوهج ابتسامتها.. كان ينادي في عمق البحر يا لأمواج وجدي التي تضرب صخور الانتظار فيغرقني زبد الوحدة.. لم يدرك أنها تختال داخل أروقة قلبه إلا بعد أن ابتعد كثيرًا عن شواطئ عينيها، وتوغل في صحراء البعد حتى باتت العودة سرابًا يتراءى له في مساحات الشوق..

الصباح الألف

أصوات النوارس تتوغل في ذرات روحه، تضغط أعصابه الملتهبة غضبًا، هذه الرياح التي تلاعبت به البارحة أطفأت سراج أمله وأشعلت رأسه يأسًا، حين داهمته أمواج الإصرار لأن يبحر داخل دوامات المغامرة. هكذا بدت له وفي داخلها صراعات طاحنة بينه وبين ذاته. إصراره على أن يعود محملا بكنوز البحار البعيدة جعلته يتمادى في تحديه لبحر ظاهره الأمل وباطنه العذاب. يمد بصره في ذاكرته فلا يجد في جعبته إلا حكايات لبحار أضاع بوصلته في صباحات التيه وصار عليه أن يتلمس طريقه في غياهب الوجع. ملامحها

أمست نجمة الشمال التي ينتظرها كل مساء لتهديه طريقا للعودة. ولكن ما أن تشرق شمس الحقيقة تبهت تلك الملامح في مخيلته، ولا يبقى في تلافيف عقله الذاهل في أمواج البقاء إلا مزيدًا من الإبحار ولكن بلا مرفأ.

الصباح ال...

اعتصر بقايا ذاكرته المهترئة، وهو يتخبط داخل طرقات عقله لاهثًا خلف سرابٍ باهت. يعود مطأطأ الأمل ليستريح بين شغاف القلب، ويُخرج مرآته الجريحة من جيب صغير في سترته، يتأمل ملامحه المُنهَكة ويُشفِق على عقله مِن هذيان الشوق. يذرع طرقات الذاكرة كثيرًا هذه الأيام؛ لكنه ما عاد يذكر ملامحها! ربما أضاعها في العاصفة، أو سقطت مع دموع ذاكرتِه وهو يصارع للبقاء على قيد الأمل. همس له النسيم في هدوء الصباح عندما كان يتلمّس وجهها على صفحة الماء فتُبعثره موجات عنيدة أنْ لا تبتئِس فمازلتَ تحملُ وهج ملامحها في قُدس أقداس ذاكرتك حيثُ لا تختلِط بملح الوجع ولا تطمِسُها رمال المسافات.. اللحظات الأصيلة يا عزيزي لا تصدأ ولا تتآكل ولكننا قد نختار أن نُبقيها بعيدًا عن ذاكرتنا الحاضرة لأننا لم نعُد نَليق بِها، ولم نعد نَصلُح لها، وقد تلَوَّثْت بالبُعد وارتكبت خطيئة الفراق، وليس لك من توبة إلا أن تُدير دفّتك وتعود على متن الشوق مُلتحِفًا بخذلانك لها وتخلع

عنك كبرياء البحّار الثائر على عِند الأصداف المغلقة على لآلئها. دعك من التحديق في أُفقٍ اخترتَهُ ولم يخترك، وعُد إلى سماء يُشرق فيها طيفك رغم البعد.

رفَع إلى الغيمات وجهًا باسمًا، وظل يراقبهن وهن يتهادين فوقه؛ يلقين ظلالًا دافئة على قاربه. تنهيدة روحه استدعت وجهها من جديد، فأغمض عينيه ليستبقيها معه. أشعل أعواد الولَع وظل يراقص طيفها على موسيقى الوجد الخافتة، ويستحضِر روعة ابتسامتها التي طالما طاردتْ جوارح الألم وكواسِر الغضب داخله. اغتسِل في أنهار الشوق وبكي ندمًا وأُقلع عن غربته دونها. ظل متبتلًا حتى خجلت الشمس مِن خشوعه وغادرت السماء على عجل تحُثُّ نجمة الشمال أن تهديه طريقًا للعودة.

فتح عينيه ببطء.. أيُّ مقامرة تلك أن أعود بخيبةٍ ووجعٍ دون اللؤلؤة السوداء التي كنت أُحدثها عنها وأرجو أن تُزيّن بها جيدها! أي خيبةٍ تلك التي رسمت بها أفقي و لونت بها روحي!.

كانت نجمة الشمال تتبختر في السماء تُبحر بِهدوء إلى الأفق، ابتسم شوقًا وأدار دفته..عائدًا إلى لؤلؤته الوحيدة.

وجـع الأسمـاك

سحبت نفسها من السرير وارتدت ملابسها مسرعة، خطواتها الصباحية في طريقها للعمل، صفعات علي وجه الارض التي لم تشعر منذ زمن أنها تنحاز لها، كعادة سلوى، كانت تفتعل محادثات مع من حولها في الحافلة؛ لتثبت لنفسها أنها مازالت قادرة علي التواصل مع سكان هذا العالم، تلوح بيدها أمام وجهها كأنها تقاتل أحد الكائنات الخرافية، ولكن في الحقيقة هي مقتنعة أن هذه الذبابة تقتات علي أعصابها كذلك.

نحيلة هي كساق وردة جوري تغريك لالتقاطها، لكنها بادية الأشواك، ورغم حدتها التي يستشعرها من يقترب، إلا أن لها عيني عصفور جريح ويدين دومًا مقبوضتين كأنها تستعد لجولة جديدة على حلبة الحياة. في طريق العودة من عملها، كانت تتلكأ في سيرها لتراقب الصيادين على شاطئ البحرفي بلدتها الساحلية، تستمتع بمراقبة هوايتها المفضلة، الصبر وانتظار الفرج، أليس هذا هو الصيد؟؟ الصبر وانتظار الفرج؟؟ لابد أن الزمن يدخرني لأكون من أبرع صيادي السمك في العالم كله..

وحيدة هي إلى حد الوجع، ربما عليها أن ترتدي اليوم أملًا جديدًا، وتصطحب وحدتها في نزهة إلى حيث تتأمل الصيادين، ما الضير في أن تحاول؟ ستلقي بصنارتها في البحر و... تنتظر الفرج. أخيرًا تراقصت الصنارة في

يدها.. سمكة!! أحكمت قبضتها على السمكة التي ما زالت تحاول استعادة حقها في الحياة، تلاقت عيناهما، فأحست ببرودة السمكة تنتقل إلى أعماقها، التقت نظراتها بصدى جريح في روحها، خلصتها سريعًا وإعادتها الي الماء وزفرت زفرة راحة وخلاص.

عادت إلى المنزل، تجرجر إحساسًا غريبًا بالوحشة، فجلست مع والدتها تتابع مسلسلًا رتيبًا، هل تتعلق بتلك المسلسلات تليفزيونية بحثا عن نصر وهمي في عيني إحدى البطلات! تسيرعلى حافة الكلمات بينهما بحذر، ولكن كالعادة تتفرع المواضيع بينهما، فتسقط في هوة حنقها، وتلتف بها الجمل لتعيدها إلى ذات الطريق الذي تفارق فيه والدتها كل مرة، وتنسحب إلى غرفتها في غضب، ماذا بك؟ أليست لك أحلام كالبنات؟ ألا تتمنين بيتا وزوجا و..لا تدري لماذا أعادها هذا الحوار إلى نظرات تلك السمكة. تلك البرودة التي أصبحت تصيبها بالقشعريرة وكأنها تتوحد مع معاناة التخلص من ذاك الخطاف العالق في حلقها.

أصبحت عينا السمكة الصغيرة المذعورة تطاردها في صحوها ومنامها، تسكنها وتتوغل في ذرات كيانها إلى حد الصدمة، تتحاشى أن تمر من شارع البحر نهارًا، وتستدعي النوم سريعًا ليلًا، دون أن تترك لنفسها حرية التجول في طرقات التفكير، تعمد بسرعة إلى إطفاء صوت ذكرياتها لتنام؛ ولكنها استيقظت الليلة على بعد خطوات من الاختناق، وقد انسحب الهواء من

رئتيها، ودقات قلبها تتصاعد في أذنيها تكاد تخلع صدرها، أغمضت عينيها بقوة لتوقف دوران الحجرة حولها، وبيدين مرتعشتين كانت تتشبث بغطائها، تغطي جسدها المتهاوي في نوبة فزع لا تنتهي، ظلت على حالها لدقيقتين، كانتا كفيلتين لتركها حطاما مهترئا لا تقوى حتى على الصراخ لتلفظ هذا الوجع الذي يزلزلها خارج عقلها وقلبها.

هذه النوبات كانت عنوانًا صارخًا لحياتها منذ.. منذ ذلك اليوم الذي كانت تصعد فيه سلم منزلها وهي عائدة من جامعتها، وصعد خلفها ذلك الشبح الذي كان يترصدها، وانتهز لحظة غادرة، فألصقها بالحائط، بعد أن أدارها بعنف فارتطم رأسها بالجدار وتهاوت إلى دوامة صداع هائل، ذاهلة لاتدري من أين جاء ذلك الوحش الآدمي، راح يضغطها بقوة جسده الضخم قبالة الحائط، ويداه تنتهكان جسدها الغض، وقد أسكت صراخها بفمه، وأمسك بيديها النحيلتين وهي تحاول أن تقاوم حتى فقدت الوعي. لاتدري كم مرعليها من الوقت ممددة على درجات السلم والدم يسيل من رأسها، لم تذكر أبدًا ماحدث لها ولم يسألها أحد رغم هيئتها المبعثرة، وعقلها الذي ظل شاردًا لفترة ليست بالقصيرة، لحظات فارقة غمستها في أنهار الألم فكأنما غيرت ترتيب ذرات نفسها، فأضحت حادة كنصل السكين، هشة كأعواد الخريف.

ظلت نوبات الفزع رفيقة أيامها، لا تسكتها حتى المواظبة على جرعات الدواء. جلست في سريرها، تنتحب في هدوء، وصرير بكائها ينهش روحها،

تتحسس الجرح المندمل في جبينها، ويدها تلمس جرحًا أعمق مازال ينزف ألمًا في روحها. ما الذي أخرج ومضات ذلك اليوم من خزانات ذاكرتها المغلقة؟ عينا تلك السمكة المذعورة تشعلا في رأسها أسئلة عطشى لإجابة، تأخذها في دهاليز الوجع فتسير كالمنومة بين ما تبقى من حطام نفسيتها، ورويدا تنسل إلى دوائر باردة تخدر مشاعرها. سارت بخطا ثابتة وقد ارتدت ملابسها وسط ذهول والدتها

– ستخرجين ليلًا؟ إلى أين؟ ركضت على درجات السلم وبخطا سريعة أخذتها قدماها إلى قسم الشرطة.

جلست سلوى قبالة الضابط تتساقط أمطار دموعها من غيمتين بائستين، تركها الضابط حتى هدأت وهو يتفرس في ملامحها المفزوعة. حكت سلوي تفاصيل تلك اللحظات التي فقدت فيها بعض روحها، وكل اتزانها، حكت وبكت وصرخت ثم هدأت، كان ذلك منذ عشر سنوات يا سيدي، عشر سنوات من نوبات الفزع وتآكل صخور الثبات أمام صفعات أمواج الذكرى، أنا بالكاد أتعرف علي يا سيدي، بالكاد ما تبقى مني يبقيني على قيد الانتظار لغد لا يمثل فرقا يدعو لانتظاره، عشر سنوات من الوجع يا سيدي ثمن لحظات اختطفها هذا الغريب من عمري. استمع الضابط باهتمام مفتعل، كأنه أمام حالة من الجنون الخالص، اعتدل في جلسته وقد مط شفتيه في أسف، بعد كل هذه السنوات، لا أستطيع أن.. نظرت إليه بابتسامة عينيها الباهتة،

وتنهدت، أشكرك على وقتك سيدي، أحيانًا نحتاج إلى انتصار زائف، إيجابية متأخرة، غرباء نلقي إليهم بأوجاعنا ثم نسلك طريقًا آخر لا تلتقي فيه أعيننا مجددًا، نصنع أملًا زائفًا بأنهم يستمعون ويهتمون لنا، ربما نقنع أنفسنا أنهم سيصنعون سلمًا للنجاة من سلبية مشاعرنا، تلك الابتسامات الباهتة من الغرباء تصنع فرقًا، أشكرك على هذا الاهتمام الزائف بالقابعة المنهارة أمامك رغم يومك الحافل بالأمور الجادة، ابتلع ريقه وعيناه تهربان من عينيها، ربما ستشعرين بتحسن بزيارة طبيب نفساني متخصص، قاطعته وهي تهب واقفة، تعدل من هيئتها.. شكرًا على النصيحة.

لم تبك مجددًا في طريق عودتها، لم تراودها ومضات تلك اللحظات الخانقة، ولكنها كانت تدرك أن عليها التعايش مع تلك الصورة العالقة بين جفنيها وعينيها.. برودة الفزع في عيني السمكة.

فــروق تــوقيــت

كانت تحاول الطّيران منذ الصباح، تُرفرِف بِجناحَينِ مِن وَجَع، وقدماها لا تُغادِران الأرضَ أبداً ورغم شمسِ الصباحِ المُشرقة؛ لكن داخلها ظلَّ مُمتلئاً بأكوامٍ مِن أوراقِ الخريفِ المُتساقطة. تردد صوت باهت داخل طرقات عقلها المنهك:

- هذا العام يا عزيزتي سيكونُ المَطَرُ كَقِطَعِ زُجاجٍ مُتناثِر، فلا تحمِلي مظلّة، وهل تَصمدَ أيّ مظلة أمام مطرٍ مِن قِطعِ زُجاجٍ مُتناثر؟

كانت تَسحَب قَدَمَيها بِخُطا متثاقلة في حُقولِ عقلِها، تُجَرجِر خلفها ميراثَ خريفٍ سابق عندما هاجَمَها خريفُها الداخلي. لم تَسْتَبن الطريق، فاتَّكَأت على ذكرياتها، ورأته بين الذكريات واقفا هناك، يُشعِلُ بعض النجوم لسمائها وكانت تُراقبه في فرحِ طفلةٍ بالبدايات، مولعة هي دومًا بالنجوم والبدايات، ولكنها لم تُدرِك أنّ مَن يُشعل تِلك النّجوم لها يستطيع أن يُطفئها. تتساءل في غضب وهي تحدق في وجهها في مرايا الروح، لماذا تَسَمَّرتُ أمام الضوء الذي راحَ يخبو ويخبو حتى احْلَولَكَ الظّلام؟ وعندما تسلّل الليل إلى فارِسها استحال كأجملِ شجرةِ صَبّارٍ بِزهورٍ بريةٍ ووردية. حينما اقتربت منه كانت اشواكُه في انتظارِها. هزت رأسها في غضب ويأس تطارد طيور الذكريات التي حطت على رأسها.

رغم الصّيف الصباحي مازالت تُكدّس أوراقَ الشّجر، ترويها بِدموعها وتهزِّها بِرِفق علَّها تَستعيدُ حياتَها أو تستعيد هي حياتها فِيها. رفعت رأسها للسماء، ولكن داخلها، كانت تغوص في أعماقِها أكثر وأكثر تَحتَ أشرعةِ القارِبِ المُهتَرِئة. كانت تَرتَعد مِن الوَلَع، تُبحِر! لكن إلى أين؟ لا تَملُك حتى مِجدافاً وكأنّ هديرَ البَحرِ يُلقِي تَعويذَتَهُ في أُذُنيها. وهو كان هناك، ملاحٌ أخر يرفعُ أشرعةً من أجنحةِ فراشات، اقتربت بحذر ولكنّهُ بالكاد يلمَحها، كان مشغولا بترتيب أشرِعَتِه ليُبحِرَ نحو مغيب. وعندما لوَّحتِ بِبقايا أشرعتها المُهترئة كان يُحدّق في قرص الشّمس والأمواج تُلاطِمه، كان يحتضنُ أشرعة المغيب بِشَغَفٍ أثارَ غيرتَها. ولماذا تغار؟ هو بالكاد يلمحها!

تساءلت في حنين:

- أين أنا الآن وهل أمطرت بَعدُ؟ طل صوتها الباهت من داخلها من جديد:
- لقد حذّرتُكِ أن هذا الشتاء سيتناثَرُ داخلَكِ، فابحثي لك عن معطف. هالها كم الأوراق التي تكتظ بها جيوب معطفها، أوراق الخريف من جديد! غمغمت لنفسها في أسى.. لن تعود للحياة إنه الشتاء، عليّ أن أهتم بنجاتِي هذا المساء من غيوم الوحدة، وأن أستعيذ بالله من وعثاء طريق أختبر وُعورتهُ كل ليلة. لا شيئ في

داخلها يوحِي بالأمان؛ لذلك نزعت مِعطَفها وتركت أوراق الخريف وقصائدها الحزينة التي همست بها في أذن الصيف ذات مرة،فإذا بفارس جديد يتراءى أمامها كوهج الحلم، وأحست دفأه في حنايا قلبها، ولكنها همست لنفسها تشد أذن ذاكرتها، لم يعد يَسمَعُ لك مُنذُ خَذَلتِيه آخر مرة.. أتذكرين؟ كان هناك، ولع آخر يمد ذراعيه كأغصان شجر التين.

لم تقترب بل ألقت بحنينها في بئر قريبة وظل هو يغرس أغصانه في الأرض أكثر وأكثر ليصل إليها رغم البعد. كانت كفرس شاردة تصفع وجه الأرضِ بِحوافِرِها، ولا تذهبُ أبعَدَ مِن سفح التّل ثم تعود. كانت تسقيه مِن حنانها طوال هذا الوقت وتطارد طيور الشوق كفزاعة من قوس المطر، فيضحك لها قائلا..يا لَكِ مِن مُحتالةٍ صغيرة! تشعلين شوقي ولا تطفئينه بلقاء! ولكنها تساءلت من جديد، أيكون هو هو أم أن المطر في الطريق؟ لكنه أخبرها ذات ولع أن اخلعي معطفك، فأي معطف هذا الذي تظنين أنه سيحميكِ من مطر بطعم الملح ولون الوجع.

لا تقبلي بأنصاف الحلول، فأنصاف الحلول خُلِقت لأنصاف البشر، وأنت تدركين الآن أن الطريق قد انتصف وأنّ الزاد قليل وتباشير الفجر تُشعِلُ أفق السماء. سألته يومها كيف يلوح الفجر في منتصف الليل أم أنه يلوح حين تنتصف الأشياء؟! كان الوقت ليلاً داخلها، وكان فجرًا فيه، فأجابها بلهفة

وثقة.. لأنك تحيين بين فروق التوقيت هنا وهناك، فروق التوقيت يا عزيزتي تقتاتُ على غَبَارِ نجمات أضعن طريقهن في متاهات الانتظار، وحين احتضنها همس في روحها.. الوقتُ لا يجيئ، نحن من نذهب لملاقاتِه أو نضيعُ بين فروق التوقيت...

فـي العــاصفـة

ياترى! إيه شعور ال 210؟ قالتها فريدة وهي تحدق في عداد السرعة بسيارتها وقد تخطى المائة وثلاثين، نظرت ببؤس للؤي وقد اتسعت عيناها الذابلتان حتى أحس وكأنها تبتلعانه فيغرق في بحر لا يدري إن كان سينجو من المغامرة فيه؛ ولكنه اكتفى بهز كتفيه وكأنه ليس جزءًا من هذا الرعب الذي وجد نفسه فيه صباح اليوم. كعادته مؤخرا، استيقظ جارها لؤي على صرخات أم فريدة وبكاء فريدة الهستيري، وبالكاد استبان كلماتها..

- انتِ مش فاهماني، ولا بابا حاسس بيا.. أنا هاسيبلكم الدنيا دي كلها.

اعتصرت كلماتها فؤاده، وقد تغيرت جارته الرقيقة ورفيقة الطفولة وصديقة المراهقة منذ أن هجرهم أبوها إلى زيجة أخرى، بعد أن اكتشف فجأة أنه يستحق حياة جديدة وأن عليه اللحاق ببقايا العمر المتسرب من بين يديه الستينيتين المرتعشتين. بعد خروجه على المعاش، تزوج من امرأة أربعينية تفهمه و... مازالت قادرة على العطاء حسبما تعلل لكل الذين توسطوا في محاولة العودة بسفينة العائلة لبر يحميها من هذه العاصفة، بعكس زوجته التي أنهكتها تفاصيل المعيشة الطاحنة لأربعة من الأبناء أكبرهم فريدة، ولم تجد ما يبرئها من تهمة التفاني في عائلتها فاستسلمت للانهيار، وأصبحت تصب حمم غضبها على

فريدة التي وجدت نفسها بين شقي الرحى، يعتصرها أنها متهمة أحيانًا بمحاولة رأب الصدع. مع اشتعال فتيل الانهيار النفسي لوالدتها كلما رأت زوجها وانفجارات انفعالاتها غير المحسوبة، أصبحت زياراته قليلة ثم اكتفى بإرسال مبالغ مالية في أظرف بنية صغيرة، كان لؤي يلمح الساعي وهو يناولها لأم فريدة، وبعد إغلاق الباب يقتحم صمت عمارتهم الهادئة، صرخات ودعوات بالويل والثبور على هذا الرجل، لكنه اليوم وجد نفسه يرتدي ملابسه مسرعًا ليلحق بفريدة، فتح باب سيارتها وقفز بجوارها قبل أن تنطلق وهي بالكاد ترى ودموعها تغسل وجعًا سكن ملامحها. لم يتكلم، وظل صامتا وهي كأنها لا تلحظ وجوده، استمرت في البكاء وبعض الكلمات الهاربات من بين شفتيها المرتعشتين كحمم غاضبة من بركان روحها الثائر، قدمها تضغط بدال البنزين فتندفع العربة كأنها تسير بطاقة غضبها واحتراقها حزنًا وألمًا. لكنها بدت أكثر هدوءًا بعد أن توجهت إلى طريق اسكندرية الصحراوي، وتركت الهواء يتوغل في ذراتها، يغسل عذاباتها بين أب غائب وأم منهارة.

- ممكن تركني على جنب؟... قالها لؤي بابتسامة هادئة وهو ينقر بسبابته على يد فريدة المتعلقة بمقود السيارة، قطبت فريدة وهي تنظر إليه، ثم علت قسمات وجهها ملامح الاعتذار، وأردفت قائلة:
- أنا آسفة يا لؤي.. انت أكيد كنت رايح شغلك أنا هارجعك.. حالًا.

ولكنه هز رأسه نافيًا:

- لا أنا خلاص بعت رسالة وأخدت انهاردة أجازة، أنا عاوز أسوق وانتِ ترتاحي "هذه الصغيرة وجدت نفسها مضطرة لقيادة عائلة بأكملها ما يضيرها اليوم في قيادة هذه العربة!" ولكنها استسلمت لنظرته الحانية، ورفعت قدمها عن بدال البنزين وهي تقترب من يمين الطريق. عندما توقفت العربة التفتت إليه معتذرة؛ لكنه أوقفها بلهفة عينيه وابتسامة روحه:

- هانفطر في اسكندرية انهاردة ونتمشى ع البحر ونرجع آخر النهار.

أشرق وجهها بابتسامة تلك الطفلة التي اعتاد أن يسابقها بالدراجة ويتركها تفوز ليستمتع بتلك النظرة التي لا يرتوي منها.

مسح لؤي رذاذ الأمواج من على نظارته وأعادها إلى وجهه الأبيض المستدير وقد أشربته أشعة الشمس التي لا يتوافق معها حمرة، يتحملها الآن فقط من أجل أن تجد فريدة متنفسا لها أمام البحر، علها تخفف قليلًا من أحمالها. اختلس النظر لفريدة من طرف عينيه ليطمئن على استقرار نفسيتها بعد تناولهما الإفطار في جو رائع من البهجة والألفة، ثم التفت لها وهي ساهمة تحدق في الأمواج المتلاطمة على الصخور المتناثرة، وقد أبحرت في هدير البحر حتى تناغمت أنفاسها معه، عيناها الرائقتان كنهرين من العسل، وشعرها الكستنائي يغطي ملامحها فتجمعه بأناملها وقد انكشف جيدها المرمري، قبل أن يتكلم لفت نظره خدوشًا عميقة، تبدو كأنها حفرت بآلة حادة أسفل

رقبتها، ابتلع ريقه وهو يزم شفتيه حتى لا يطلق صرخة حنق، لابد أنها والدتها، هل جنت لتؤذي ابنتها بهذا الشكل؟ شعر لؤي بالاختناق، ونبضات قلبه المتسارعة تشعل الهواء في رئتيه، تنهد بحدة، ثم زفر زفرة غضب يغلي في أعماقه لم يستطع أن يكتمه، فالتفتت إليه فريدة مستغربة:

- مالك؟ هالتها الدموع التي كان يجاهد ليحبسها بين جفنيه، وصوته المتكسر بين وعورة الكلمات، أمسك لؤي بكتف فريدة ضاغطا:
- فريدة.. ماتخليش حد يؤذيكِ، ما تحطيش نفسك في موقف يخلي حد يمد إيده عليكِ.. إزاي تعمل كدا؟ أنا مش متخيل، استغربت فريدة من كلماته، وهو يشير إلى صدرها. جذبت فريدة قميصها وأحكمت غلق أزراره، وطأطأت رأسها في خجل:
- محدش عمل لي حاجة.. كيف أخبرك أني أصنع طريقًا للنار المعتملة في صدري لتهدأ؟، كيف تستوعب أني حين أقف أعلى صخرة الوجع وحتى لا ألقي بنفسي إلى هاوية الغياب أكتفي ببعض الألم عله يعيدني إلى قيد الحياة، وقد أضحى الألم عنوان أيامي، هل تشعر بالألم من أجل هذه الخدوش؟ فما بالك بالجروح الغائرة في روحي، والشتات الذي زرعتني فيه عائلتي! أشعر أحيانًا أني أختنق بخلافاتهما ولا أملك أن أحيك قميص الوعي لأبي فيرتد بصيرًا بمسؤولياته تجاهنا وتجاه أمي، ولا أن أزرع الصبر في شرفتنا فتقطف

أمي أزهاره كل صباح وتتنسمها فتهدأ وتعود لسلامها النفسي، أنا يا صديقي لا أملك إلا أن أسدي بعض الجراح إلى صدري نيابة عن الأيام، لفشلي في استعادة أسرتي، عالقة أنا يا لؤي بين أشجار اليأس في صحراء الضياع، تأكل الحيرة من رأسي ولا أستطيع خلاصًا ولا أجد طريق العودة لذاتي. ابتلعت فريدة حريقا شب في حلقها والكلمات تتعثر خجلًا وألمًا على شفتيها.. ماما ماعملتليش حاجة يا لؤي، أنا بس بابقى مخنوقة.. ف..، أدار لؤي وجه فريدة ببطء ناحيته وعلامات تعجبه الغاضبة تصرخ في ملامحها الحزينة..

- ليه يا فريدة؟ مهما حصل.. إنتِ تعملي في نفسك كدا! أطرقت فريدة وهي تقول في أسى:
- تعبت من العيشة كلها يا ريت في إيدي أغير حاجة من الوضع في البيت، قاطعها لؤي:
- أنا عارف إنك جزء من البيت مش هاطلب منك تنفصلي عنه نفسيًا بس لازم تتعلمي تحمي نفسك. كانت فريدة تبدو هشة كأوراق الخريف، وحيدة كمسافرة في أرض مقفرة بلا زاد، ود لو ضمها إليه، لو ربت على وجعها واحتوى حيرتها، خانه جفناه وباحا بدمع الحزن على تلك الروح التي أنهكتها الخلافات، فمسح دمعه بكفه، حتى لا تلمح أساه عليها، وأخذ يدها بين كفيه، يحتضنها برفق..

- خلي بالك من نفسك يا فريدة، كل واحد فينا ليه مشواره، انتِ دلوقتِ جزء من مشوار عيلتك، لازم نتعلم ما نحملش نفسنا فوق طاقتها، في حاجات مش هاتتغير، هانتعلم نستوعبها ونقبلها وساعات نعتبر نفسنا برا الصورة اللي مش هانقدر نغيرها. نظرت فريدة إلى الصخور المبعثرة أسفل قدميها تستند على بعضها فلا تدري من منهم يحمل ثقلًا أكثر، من منهم يعاني نخر الأمواج في صمت، ومن منهم يحتمي في وجود الآخر، هل تحتفي هذه الصخور بالتحامها معًا، هل تشتكي أقدامنا المستريحة عليها وبعثرة مشاعرنا أمامها بلا خجل؟.. ابتسمت فريدة ابتسامة باهتة وهي تعقب على كلام لؤي..
- صعب يا لؤي، أنا جوا الدوامة ومطلوب مني أحتويها، جوا نار المفروض أنا اللي أطفيها. عاجلها لؤي معترضا:
- مطلوب منك تساعدي الأزمة تعدي والأطراف يفهموا بعض.. على قد ما تقدري من غير ما تؤذي نفسك يا فريدة، ما تحمليش نفسك فوق طاقتها. زفرت فريدة وجعها وبكت طويلًا همها للبحر، واختلطت دموعها بملح الأمواج، ظل كلاهما يهمهم ببوحه لنسمات الكورنيش، هو يتمتم بخوفه على قلبها الذابل ألمًا، وهي تزفر غضبها من كل الأحداث التي تغرقها باليأس من الوصول إلى شواطئ

الهدوء وسط العواصف العائلية المتتالية. هم لؤي بالوقوف ومد لها يده، فابتسمت وهي تريح يدها في كفه وتستند على كتفه في راحة وسلام. أزاح لؤي خصلات شعرها الحرة، لتتعانق عيناهما:

- أنتِ مش لوحدك يا فريدة، أنا جنبك. أشرق وجهها ببهجة نسيت الطريق إلى ملامحها طويلًا، وراحة تسللت رويدًا إلى روحها المتعبة.

ومـــات مجـــددًا

كقطرة ماء من فم السقاء، ترى هل هكذا ستفيض روحي؟! سرح الحاج محمود في قطرات الماء المنسابة ببطء من الصنبور، بعد أن انتهى من وضوئه لأداء صلاة الصبح، انبسطت صفحة وجهه وهو يتذكر كيف كان يتوضأ في منزله قبل الأذان ويمشي بهدوء وسكينة يتهادى في الشارع بجلبابه الأبيض ووجهه الوضيء، متكئًا على عصاه بقامته الفارعة رغم هزاله الواضح بعد أن اقتاتت الوحدة على عافيته بوفاة زوجته، وعندما يصل للمسجد، كان يتخذ مكانه الدائم مسندًا ظهره على أحد أعمدة المسجد في انتظار إقامة الصلاة. صفعات عنيفة على وجه الباب قطعت تداعي أفكاره مع قطرات الماء، وصوت زوجة ابنه يشق صمت الفجر..

- من فضلك. من فضلك يا عمي.. لا داعي لأن تقضي دهرًا في دورة المياه وابنتي تحتاج إلى الدخول.. الآاااان. ابتلع الحاج محمود ريقه وأغلق الصنبور بسرعة وفتح الباب مسرعًا، ليجد زوجة ابنه تسد الباب بجسدها الممتلئ وشعرها الثائر ووجهها المكفهر وهي تحمل ابنتها بين ذراعيها، ترمقه بنظرات ضيق. مطت شفتيها في تبرم وفتحت الباب بركلة من قدمها وهي تتمتم بكلمات غير مفهومة، أو كذلك اعتاد أن يقنع نفسه أن الحروف التي تتشكل كذم له وللحياة

في هذا المنزل البائس هي حروف مبتورة تجمعت بشكل غير مقصود لتعطي هذا المعنى، وعليه أن يستعيذ بالله من سوء ظنه، ولكن ماذا عن ملامحها! لا تبدو أبدًا مرتاحة لوجوده في محيطها؛ لذلك كان عليه أن يقضي جل وقته وحيدًا في غرفته.

ماجد ابنه، مهندس اتصالات يعمل في إحدى شركات القطاع الخاص، أخذ سماره وقامته الممشوقة عن أبيه، وأخذ طيبة قلبه وهدوء ملامحه عن والدته التي توفاها الله منذ عامين، اقترحت زوجة ماجد أن ينتقلا للعيش معه، فرح الأب بهذه اللفتة الطيبة، ولم يكن يدرك أن زوجة ابنه علا تخطط لتأجير شقتها والعيش في شقته واستجاب لها ابنه وهو يظن أن هذا سيعطيه فرصة لبر والده، ولم يدرك الحاج محمود أنها لم تأت إلا لتحدد إقامته بملامحها المتجهمة طيلة الوقت، وانشغالها حتى عن ابنتها بأحاديثها التي لا تنتهي في هاتفها مع صديقاتها، وهو يسمع شكواها الدائمة من وجوده رغم محاولاته الدائمة لإرضائها تارة باختفائه في غرفته أو محاولاته أن يساعدها في تربية ابنتها. يقضي ماجد معظم وقته في عمله ويعود في المساء متأخرًا، يدلف إلى حجرة والده ليطبع قبلة على جبينه، ولا يراه مرة أخرى حتى الصباح وهو يركض مسرعًا نحو عمله. أي وحدة تلك التي فرضها عليه وجود من حوله! أي وجع ذلك الذي نشب أظافره في بقايا عمره وهو يصرخ داخل دوامات الزمن! أي عمر ذلك الذي ولى فلا صديقا أبقى ولا جهدا ترك! لم يستطع النوم بعد أن صلى

الصبح في غرفته، ذرع يمشي في الممر بين الغرف، كطفل يتعلم المشي يتسند على الحوائط والكراسي في طريقه، لابد أنه قد بدأ يفقد قدراته من قلة الحركة، رويدًا وصل إلى غرفة المعيشة، وألقى بنفسه إلى أحضان الأريكة، كيف للجماد أن يكون أحن من البشر؟! بل وأكثر ترحيبًا بوجوده منهم. تمدد وهو يتذكر.. "قطرة من فم السقاء"، ترى لو فاضت روحه الآن هل سيشعر به أحد؟ هل سيظل ملقى على هذه الأريكة للأبد؟ ربما سيقبله ابنه لليال قبل أن يلحظ أنه قد فارق الحياة. شغلته الفكرة، حتى سمع وقع أقدام علا، تمشي متكاسلة تجرجر أقدامها وقد استيقظت ظهرًا، أغمض عينيه، وكتم أنفاسه وأرخى يديه، كأنه قد فارق الحياة، حدقت علا في وجهه، وبدأت تتمتم بغل.. غادرت حجرتك! تريد أن تجبرني على تنظيفها، هه لنرى من فينا ستكون له اليد العليا هنا، جلست على الكرسي المقابل، تتفرس في ملامحه، كان يشعر بنظراتها تخترق عينيه المغلقتين، وأنفاسها تلهث وراء حلم تعيش تفاصيله بأن يغادر هذا العجوز شقتها وحياتها للأبد. نادتها ابنتها، فانتفضت قائمة، وهي تصرخ، انتظري، يبدو أننا سنرتاح قريبًا.

اختفت علا في المطبخ، وجاءت حفيدته رغد راكضة، فأغمض عينيه من جديد، ضربت رغد ذات الثلاثة أعوام الأرض بقدميها:

- أمي .. جدي يحتل الأريكة، ابتلع ريقه وزم شفتيه قليلًا، ولكنه أكمل تمثيلية الموت مجددًا.. أيتها الصغيرة الماكرة ناكرة الجميل، أنا جدك

وهذا بيتي، سامحك الله. جاءت علا بصينية الإفطار ووضعتها على الطاولة أمام محمود وابنتها، تناولت رغد شطيرتها وقامت إلى لعبها، أما هو، كيف لميت أن يأكل! لنرى متى ستلحظ؟ جاءه صوت قدميها فكتم أنفاسه من جديد، جلست في ركن قصي وبدأت محادثاتها الهاتفية مع إحدى صديقاتها:

- منال أخت ماجد ستعود الأسبوع القادم من السفر، لا يا عزيزتي، كل شيء تحت السيطرة، بعنا شقتنا منذ شهر، لن تستطيع أخته أن تطردنا أو تطالب بأي أموال بعد وفاة العجوز، خرج اليوم من غرفته واستلقى على الأريكة ويبدو أن ساعته قد اقتربت.. إييه ادعوا لي جميعا بالفرج.

أحس الحاج محمود بوخزة في صدره، وهو يستمع لما تقوله تلك الشيطانة، نزلت دمعة من ركن عينيه.. كقطرة من فم السقاء، كانت دافئة، كوجه ابنته التي يفتقدها بسفرها الدائم مع زوجها، انحدرت دموعه مبللة طرف وجهه، وتزايد الوجع الذي امتد إلى فكه واعتصر صدره، فتح عينيه وهو يبحث عن الهواء الذي انهزم أمام همسات تلك القديرة، أحكمت كل خيوط اللعبة وأصبح هو خارج دائرة النور بالنسبة لها، لم يعد يهمها أن تمثل دور زوجة الابن الطيبة، أظهرت صورتها الحقيقية منذ فترة، ولم تعد تهتم بتلميع صوت ضميرها الصدئ، ويبدو أن دوره الذي كتبته له قد قارب على

الانتهاء، لابد أن يترجل من صهوة الزمن سريعًا، قبل أن تجبره هي على الخروج من بيته إلى دار رعاية؛ ولكن ماذا يملك لقدره إلا أن يتمنى قطرة من فم السقاء؟ أغلق عينيه.. ومات مجددًا.

حيـــاة

تتكور على ذاتها كل ليلة، كأنما تعيد نفسها إلى رحم الأمان. تربت على خوائها وتهدهد وجعًا يسكن روحها. تضم يدها إلى صدرها علها تعيد قلبها المنخلع من مكانه، المهاجر خلف رحيله.

فتحت مها عينيها في حلم يجمعها مع ابنها الراحل عمرو، ضمته في حنان وراحت تراقص طفولته الجامحة، تركض خلف لهفته وتتعثر في أحلامه تضحك تضحك فيبتسم هو لها ابتسامة امتنان، ثم ما يلبث أن ينسل من بين يديها ويتلاشى من حلمها كيامات بيضاء، تحلق نحو سماء تتوشح بالنجوم وقمر يأتزر بالغمام، وكأن طيفه يربت على رؤوس الأشجار التي ترنو إليه، تمد يدًا نحوه، ثم تنطفئ النجمات في سماء الحلم، ولا يبقى إلا سواد الفقد يضمها بقوة، ويسحب الهواء من رئتيها، فتستيقظ لاهثة وينابيع الدمع قد تفجرت من عينيها. حلم يتكرر كل ليلة من ليالي الأسابيع الثلاثة التي تلت وفاته في مشفى الأطفال لعلاج السرطان، حيث مضت سنتها بين عياداتها وغرفها أملًا في استعادة صحة ولدها من براثن المرض الخبيث، ولكنه كان على موعد مع الغياب.

استيقظ زوجها فزعًا على صراخها المكتوم الذي أصبح يتكرر كل ليلة منذ وفاة ابنهما. مسح بأصابع حنانه دمعها وضمها إليه؛ لتستفيق، كانت تنادي باسم ابنها عمرو في رقة ولهفة، وحروف اسمه تنشب أظافرها في قلب زوجها سامح، فيتشبث بها أكثر، يتعلق بأمل واه أن يعيدها إليه قبل أن تبحر نحو شواطئ البعد حيث أبحر ابنهما ذات وجع ولم يعد.

فتحت مها عينيها الدامعتين وابتسمت في هدوء لوجه زوجها الرائق كغدير من الحنان، رغم حبات القلق التي اعتلت جبينه، ثم انتفضت بين يديه، وفي لحظة كانت في منتصف الغرفة تعيد ترتيب خصلات شعرها العسلية المبعثرة على كتفيها، وهي تتلفت في قلق.. تأخرنا على عمرو ياسامح، كيف نمت كل هذا الوقت؟! كم الساعة الآن؟ لابد أن!... لحظة اختطفت مها بعيدًا عن واقعها، وحملتها خلف سحابات الواقع إلى سماء الأحلام، ثم أفلتتها لتتهاوى إلى قيعان الواقع الموجع من جديد. وقفت مها بجسدها النحيل، وعينيها الواسعتين، وشعرها العسلي المنسدل على وجهها الشاحب، أخفضت رأسها وابتلعت حريقًا نشب في حلقها، ثم وضعت يدها على شفتيها المرتعشتين، تكتم صرخة تتصاعد من جوفها تتلمس هربًا من أعماقها، ثم قالت بوجع يرسم كلمات، تبينها سامح بصعوبة وسط نحيبها...

- عمرو مات يا سامح. عمرو.. مات.

اقترب منها سامح بهدوء وهو يمد لها يدًا عله ينتشلها من وجعها الذي يغلفها كشرنقة تلفها بخيوط من الأسى. ضمها إليه كطفلته التي بقيت له بعد أن ضرب زلزال التوتر بيتها الدافئ بمرض ابنهما، فجرفتها رياح القلق عليه وأوقفت هي حياتها تمامًا على مرافقة ابنها في جلسات علاجه الكيماوي والإشعاعي، كان عليه أن يراهما معًا يذويان ويضعفان، كأنها تشارك ابنهما مرضه، وبدت كل محاولة لاستعادتها أو حتى مشاركتها رعايتها لولدهما محاولة مؤودة في مهدها، إلى أن رحل ابنهما ذات صباح، وهي نائمة بجواره، تمامًا كاليمامات التي تراها في حلمها، أفلت يد الحياة، ومضى في هدوء خلف تلال الراحة بعد صراع جرف طفولته إلى دوامات لا ترحم. وهي! بقيت عالقة بين زمان يشاركها فيه عمرو كل لحظاته، وزمان تنكره أضحت فيه فريسة انهيارها بعده.

دارت الدنيا بمها، فأغمضت عينيها؛ لتستعيد توازن جسدها الذي أصبح مرآة لنفسيتها المهترئة، أحس سامح بجسدها يتهاوى بين يديه فحملها إلى فراشهما، وهدهدها بين ذراعيه وهي تقاوم شعورًا بالغثيان، وأحماض معدتها الخاوية تتصاعد إلى حلقها، فتتذكر معاناة عمرو ابنها؛ فتبكيه من جديد. ظلت مها على حالتها حتى اليوم التالي، عندما حملها سامح إلى المشفى ليطمئن عليها. بعد أن خرج الطبيب من حجرتها، اقترب سامح منه في قلق، وزفر زفرة يأس.. سيدي يبدو أنها تحاكي نفس ما عاشه عمرو في رحلته مع

العلاج، أخفض رأسه وهو يتذكر عمرو ومعاناته.. فقدانه للشهية، لم يكن يقو على الوقوف، كانت روحه تنسحب مع القيئ الشديد الذي كان ينتابه بعد العلاج الكيماوي، وحتى فقدان التوازن و... قاطعه الطبيب وهو يربت على كتفه، وبابتسامة أب حانية نظر إلى عينيه البائستين وقال:

- مبارك لك يا بني.. المدام حامل.

جرعة ناقصة

نقرات خفيفة على زجاج نافذتها بعد منتصف الليل، لم ينتبه زوجها الذي يغط في نومه بعد عودته من عمله، ولكنها تحفظ صوت يده وتسمع نداءه بقلبها، فتحت النافذة بقلق متثائب، وما أن التقت عيونهما حتى انهار باكيًا.

فتحت لمياء الباب مسرعة وحدقت في وجه أخيها علي، لم تره هكذا مرتعدًا كعصفور جريح تحت أمطار الوجع منذ عامه الأخير في الثانوي، عندما طرده أبوهما من المنزل غاضبًا من فشله في الامتحانات، يومها هرع إلى أخته التي تكبره بخمس سنوات، وعشر سنوات ضوئية من الحنكة والحزم، هي له كباب الفتوح وقلعة صلاح الدين، رمز وقامة. نجحت في عقد هدنة بينه وبين والده، ولكن علي رضخ لوالده الذي رفض يومها إعطاءه فرصة إعادة السنة الدراسية وقرر إلحاقه بالعمل عند ورشة جارهم سيد لإصلاح السيارات. مدت لمياء يدها لأخيها وعيناها علامتا استفهام كبيرتان، لكن علي رفض الدخول، وعاد للخلف بظهره وهو ينظر بعينين زائغتين باكيتين، وملامح وجهه المنهارة تمامًا كالعقار المتهدم الذي يحتل ناصية شارعهم دون قرار ترميم أو إزالة. ارتدت لمياء إسدال صلاتها فوق ملابس النوم على عجل، وخرجت لتجد علي يجلس على رصيف الشارع وقد دفن رأسه بين ركبتيه، وجسده النحيل يهتز على وقع أزيز بكائه الخافت. وضعت يدها بقلق على ظهره فجفل

في خوف. رؤية أخته، أمانه الوحيد في هذا العالم منذ صغره، هو ما بدا له الفعل الصحيح في يومه المتخم بعذابات تتراءى له كخيالات تصرخ في وجهه وتزلزل ذرات كيانه. انسلت خيوط ذكريات الساعات الأربع الماضية تلفه وتحكم شرنقتها حول عقله المتعب؛ ولكن ومضات الصور المتلاحقة باتت تسكنه وتعود به إلى هناك حيث ترك فتحي زميله في الورشة الذي يكبره بعامين فقط ولكن طريقه دومًا كانت وعرة وقاسية منذ الطفولة، فقد ألقي رغمًا عنه إلى وحش العمل ليلتهم أيامه منذ كان في الثامنة من عمره، تنقل منذ ذلك الحين بين عدة وظائف ليعول والدته وأختيه بعد هرب أبيه في إحدى الليالي البائسة التي وضعته أمام عجلات المسئولية وسحبت منه بقايا طفولته وألقت به إلى دوامات الحياة.

- فتحي؟ يا الله ماذا بك؟ كم قرصًا أخذت من ذلك المخدر اللعين!!

شهق علي شهقة شرخت رئتيه وألهبت الهواء فيهما، وقد تسمرت عيناه على وجه فتحي صديقه ورفيقه، وهو ملقى على الأرض وقد انتابته نوبة تشنج تصلبت فيها كل عضلات جسده والتوى عنقه للخلف وقد شخصت عيناه الحمراوين كبقعتي دماء تجمدتا في وجهه الأزرق، وقف علي مشدوهًا وقد تسمرت عيناه على ملامح صديقه فتحي التي تبدلت وأصبح كشبح من أراضي الموتى. جثا على على ركبتيه وهو يهز فتحي في هلع عله يجهض تلك الحالة التي أصابت صديقه، ثم ابتعد مرتجفًا وقد تلون الزبد حول فم صديقه باللون

الأحمر بعد أن أطبق فتحي بأسنانه على لسانه. فتحي؟ لماذا لا ترد يا أخي؟ توقفت التشنجات وسكن جسد فتحي وأصبح باردًا باهتًا كلوح ثلجي ممدد على الأرض بجوارعلي، الذي ابتعد مرتعدًا وركض مغادرًا الورشة التي اعتاد أن يجلس فيها بعد غلق أبوابها مع فتحي بعد انتهاء عملهما، وحيث كان فتحي يتعاطى أنواعًا مختلفة من المخدرات بدءًا بسجائر الحشيش التي كان علي أحيانا يشاركه فيها بعد إلحاح، ثم تطور الوضع أكثر مع توافر المال لفتحي من عمله في الورشة وأصبح قادرًا على شراء النسيان بالمال كما كان يحلو له أن يصف تلك اللحظات التي تغيبه عن الوعي، كان يتحدى جسده المنهك من العمل طول النهار بالاقتراب من سقف الموت ودفع البوابة التي تفصله عن الحياة، ثم يعود بمتعة زائفة كطفل يستبقي طعم الحلوى في فمه رغم المرارة التي تتركها بعدها.

في هذه الليلة استبقى فتحي علي بعد انتهاء عملهما، بعد عودة صاحب الورشة إلى منزله، وأخرج أكياسًا من أقراص تبدو كأقراص الدواء، وبدأ بخلط أنواع مختلفة وابتلاعها الواحد تلو الآخر، ثم استلقى على الأرض في نوبة من الضحك الهستيري، ثم البكاء المرير، وعلي يراقب كل ذلك ممتعضًا، وعندما هم علي بالمغادرة، التقم فتحي مزيدًا من الأقراص وابتلعها ثم جحظت عيناه وكأنما ألقت به تلك الحفنة الأخيرة من الأقراص في شلالات من التشنجات المتتابعة التي تركته في وادي الموت السحيق.

رفع إلى أخته لمياء عينين دامعتين، ولكن عينيها الغاضبتين أشعلتا الليل من حوله، جذبته من قميصه وهزته في ثورة تتصاعد وتشق السكون حولهما.. تركته يا علي؟ لم تحاول إسعافه! لم تحمله للمشفى! هربت كجرذ اجتاحت جحره مياه المجارير! إلى متى يا علي؟ إلى متى تقف على هامش الكتاب، فلا أنت تكتب سطورك، ولا تمحو مالا يروق لك من كتاباتهم! متى تسيرفي طريق الإيجابية ولو لمرة في حياتك! ولو لمرة واحدة، ليتك ما تركته لأجلك أنت قبل فتحي. هبت لمياء واقفة فصرخ فيها علي.. لقد مات يا لمياء، فتحي مات ماذا علي أن أفعل؟ التفتت لمياء في غضب، ثم مطت شفتيها وهزت رأسها حسرة على هذا الفتى النحيل، ذي العينين الغائرتين، الذي انحنى ظهره خنوعًا فبدا أقصر من قامته، ولم تكلف نفسها عناء الرد عليه، سارت بخطا متثاقلة بعد أن ألقت أحجار غضبها في بئر حيرته.

في دوائر لا نهائية من الشتات وجد علي نفسه ليلتها ينهبه القلق الذي تمدد بطول شرايينه، واقتات على أعصابه، فأمسى متخبطًا في خطا بدأت حائرة خائرة، ثم ما لبث أن بدأ يجمع كسور نفسه. ماذا كان اسم ذلك الولد الذي اعتاد أن يهزأ بي في المدرسة الابتدائية؟ أنتِ لم تكوني هناك يا لمياء، لم أخبرك عن ابن جارنا الذي ضربني بعصاه على يدي وكسر إصبعي، أخبرتك أني تعثرت في درج المنزل وحسب، مسحت دموعي لكنك لم تلمحي جروحي الغائرة من

تهكم أبي في كل مرة ينظر لي باستخفاف ويلكزني بكلماته. كان يريد أن يصرخ، يلعن الدنيا ولكن كعادة علي كان يلعن نفسه ويسدد بضع ضربات إلى جنبه.

ذهب علي مسرعًا إلى المشفى، وأمام مكتب هيئة الإسعاف رفع الموظف نصف عين إلى علي متأففًا، الإسعاف لا تحمل الموتى، انتظر مكتب الصحة في الصباح، ثم أدار ظهره لعلي ليحثه على الاختفاء من أمامه. تهدج صوت علي متوسلًا.. ربما لم يمت، ربما مازال!.. ولكن المسعف عاجله بالقول في حزم.. مكتب الصحة يا ولدي.. غدًا صباحًا، أو اذهب إلى قسم الشرطة.

عندما كانت خيوط النور تشق العتمة، وقد ارتفع صوت التواشيح من المسجد القريب، وقف علي أمام الورشة مع الضابط وقوة من القسم، نظر الضابط إلى علي آمرا له بأن يفتح الورشة انتفض علي وأخبره أنه لا يملك المفتاح. في لحظات جاء الأسطى سيد مهرولًا ثم نظر في قلق إلى علي وناوله المفتاح. ارتعد علي وسحب يده وأخذ بضع خطوات للوراء حتى التصق ظهره بالبوابة الحديدية للورشة فأصدرت صريرًا عاليًا، انتفض علي من جديد ولكنه تسمر أمامه وهو يحدق في الشبح الذي يسير متمهلًا وقد تخطاه وألقى السلام على الأسطى سيد، تساءل فتحي في استغراب، هل هناك خطب ما؟ لم يستطع علي أن يتحمل هول المفاجأة فخانته قدماه وجلس يلتقط أنفاسه وهو يحملق في فتحي، ولم يشعر إلا بيد الضابط تسحبه وتلقي به في العربة، أنت متهم بتقديم بلاغ كاذب.

على ناصية العمر

على ناصية العمر، وقفت تنتظر حافلة الأمل كي تقلها لغد لا يأتي. تستعجل أيامها ولاتدري أن ورق الرزنامة الذي يسقط لا يعود، وأن من اللهفة ما قتل.

طويلة كانت كليل الشتاء الذي يشتاق فجرًا، سمراء كالأرض البكر، عيناها قطرتا عسل من زهور الدهشة أو ربما كانتا امتدادًا لأنهار العسل في الجنة، تميل برأسها قليلًا من ثقل أفكارها، فلا هي تسقطها عن كاهلها ولا هي تعتدل فتنساها، ترفل في حدائق الخيال حيث تكبر أشجار البهجة في أراض سوداء، قيعان لا تنبت زرعًا ولا تحفظ ماء. ولكنها بأقلام التلوين الروحية كانت دومًا قادرة على أن تزين صور الوجع بأزهار الاحتمال.. وهل لغير هذا شرع الخيال!

جالت ببصرها في وجوه الواقفين على المحطة، لم يلمح أحدهم أنها حبلى بالأماني وقد أصابها وهن الانتظار ووجع المخاض. كانت تحدق في عيونهم لعل أحدهم يفسح لها مقعدًا للحنين. ولكن الجميع كانوا يتشاغلون بالنظر في اتجاه واحد، ينتظرون الحافلة إلا هي كانت تنظر إلى السماء.

تلبدت سماؤها بالغيوم، فأمطرت عيناها لآلئ وجع على أيامها، سارعت بمسحها بكفي خجل وكأن أحدًا يحفل حقا بها، لكنها اعتادت أن ترتدي ابتسامتها وتشد وشاح الأمل فتخفي خصلات اليأس التي تثور على صبرها.

تركل أحجار الملل برفق فتتدحرج بعيدًا عن صبرها، وتتنفس ولعها بالحياة فتملأ رئتيها برائحة الشغف، ثم تزفر انتظارها على مهل، فتتكثف آهاتها كقطرات الندى على بتلات الشوق، فهل تمطر فرحًا؟

على مقربة منها، كان متكئا على انتظاره، يصفر لحنًا شجيًا، مغموسًا في مقامات الشجن، يقطر وجعًا. وحدها كانت تنصت، ووحده كان يترنم بهمهمات كأنه ناسك يتبتل في محرابه، التفتت لتجده يلف ذراعيه حول أحد أعمدة الإنارة، أيراقص خذلانًا ما؟! أم يعلق أحلامًا مبتلة بقطرات الأمل على مقربة من أشرعة الضوء المنهمرة فوق رأسه! كان طويلًا كسارية، حنطيا كلون الخبز، عيناه كسماء مدينتها ليلًا.. سوداء بلا نجوم، ويداه تتهاديان في الهواء كأنما تعزفان على آلة وهمية نحتتها أحزانه. لكنه توقف عن الغناء وتنهد آهة لمست غيمات السماء فانقشعت، وطلت الشمس بعين فاحصة، أي وجع جاء بك ياحزن المدينة؟.. أي آهة سكنت حنجرتك وتمددت في أيامك حتى قطعت وتين البوح ولم تترك لك إلا ترنيمة وجع!. هل يعقل أن تصبح كلماتنا جزءًا من أجسادنا؟ فنحرص على أن نغطي عورة مشاعرنا بعيدًا عن أعين المارين فوق أوجاعنا! أحقًا أن على تلك الناصية تكتب للحروف وثيقة وفاة تسبق

شهادة ميلادها؟ دعك من آهاتك وأطلق عنان كلماتك في آفاق البوح.. تسمرت في مكانها تدق بكعبها رمال اللهفة.. هل تُطوى الأرض فيقتربان؟

كفت عن التحديق في سمائها، وقد أهدتها جنتين على الأرض يستحقان التأمل.. عيناه، كانتا كمدن مسحورة، لا تبوح إلا إذا تركت روحك على أعتابها. بابتسامة باهتة، أرسل إليها سؤالًا عن أحوالها.. فغضت الطرف ثم رفعت إليه عينين حانيتين. وحيدة هي حتى الوجع، لم تعتد سؤالًا عن أحوالها، اقتربت ففرش لها رداءه، جلست تلتقط أشواك الطريق من ردائه، انغرست بضع أشواك في كفها الغض فانحنى يجفف دمع عروقها بكفيه، حادثها طويلًا عن أحلامه، وغرس أمنياته التي بدأت تزهر في خياله، وأقسم أنه رآها هناك، تجمع عناقيد الأمل من كروم الأحلام وقد طوت ثوبها، حتى كشفت عن شغفها، حادثها عن انتظاره طويلًا لمن يربت على دندنته، ويستمع لحداء وجعه، وكانت هي غارقة في حلمها وهو يحملها على جناحي أحلامه ويحلق بها هناك وراء غيمات الولع، يقطر لها الأمل من بحار الملح، وهي تذوب في ملامح حلمه حتى تلاشت فيه.

لماذا لم تسمع أبواق الحافلة عندما توقفت للحظات في المحطة! لماذا ظلت هناك تتلكأ بين مشاعرها وهو يغادرها مسرعًا ليلحق بغده.. بدونها، بدونها؟ لقد صاح فيها أن تأتي بعد أن صعد وضمن مكانه هناك، تسمرت قدماها وهي تفتش بين الوجوه المتلاحقة عن جنتيها في عينيه، كانت عيناه غائمتين بحلم

لايراها فيه، لم تكن هناك كروم، وقد تحصرمت ذاكرتها عنه وهو يغادرها ملوحا.. ربما في محطات أخرى لو كتب لنا لقاء.

ابتسمت بمرارة وهي ترفع عينيها للغيمات الراكضة خلف محطات العمر، عاودتها الرؤى وهي تحدق في الرداء الذي بسطه لها قبل أن يغادر، سحبته ودسته في حقيبتها، ولكن هالها مارأت داخل حقيبتها، كم رداء بسطه لها قبله العابرون فوق قلبها! كم ذكرى خطتها أيديهم على جدار روحها المنقض! والآن تعاودها الذكرى ومضات تعيد تكرار أيامها.

فتحت حقيبة ذكرياتها، وأطلقت سراح الأردية جميعها، فحلقت كيمامات غادرتها بعد أن دارت فوق رأسها، فابتسمت في حسرة، تتدثر بانتظار وتتوشح بحلم البقاء على قيد الحلم.

بدأ المتوافدون على المحطة من جديد يشغلون حيزًا من فراغ يومها، يتبادلون بينهم التحايا الباردة، كلهم ينتظرون غدًا جديدًا، وهي تبتعد في ركن قصي، تتضاءل مساحتها في الخلفية.

بعد أن تخلصت من الأردية، وتخففت من حمل ذكرياتها، تساءلت داخل عقلها المتخم بالوجع..هل حقًا عليها أن تنتظر الحافلة؟ وحيدة هي ولم تتعلم قراءة لوحات مستقبلها، ولكنها ما عادت تطيق ألم الوقوف بين هؤلاء الغرباء، إنهم يمتصون طاقتها ويقتاتون على بقايا ابتسامتها ثم ينسلون كقطرات الماء المنهمرة على نافذة أيامها، يحفرون لأنفسهم طرقًا لا تترك إلا

آثارًا تذكرك ببكائيات الغيم. هل تمضي وحدها في طرقات لم تطأها من قبل؟ كيف تصبح خفيفة بلا ذاكرة للوجع؟ وقد امتلأت صفحات أيامها بسواد أحبارهم. ربما عليها أن تغفر لتستعيد بياض بعض صفحات أيامها، وكيف لها أن تكتب من جديد وقد تمزقت صفحاتها تحت صرير أقلامهم الجافة من مداد الود! ابتسمت في ثقة، عليها حقًا أن تغفر، ولن تغفر حتى تنسى، ولن تنسى إلا حينما يصبح النسيان أصيلًا وتختفي ندبات الخذلان تحت لهفة المحطات القادمة، قامت ونفضت عنها غبار الإخفاق وبقع الخذلان، ستشق طريقًا لها، ما حاجتها إلى حافلة مكتظة بأحلامهم المهترئة، ووداعهم المصطنع، وابتساماتهم الزائفة، هي لن تقف مجددًا في محطات الانتظار على ناصية العمر.

مقابلة عمل

لم يكن صباحًا عاديًا، ككل صباحاته المتشابهة مؤخرًا، منذ أن تم إقصاؤه من الشركة التي خدم بها خمسة عشر عامًا، بحجة ضخ دماء جديدة. ورقة بها عبارات شكر ومبلغ من المال مكافأة نهاية الخدمة، هي كل ما عاد به لمنزله ذلك اليوم وهو لا يصدق أنه أصبح بلا عمل. عاد ليجد زوجته مازالت في عملها، فجلس في ذهول وحسرة، صارا رفيقا ساعات أيامه التالية.

اليوم أخيرًا وافقت إحدى الشركات على إجراء مقابلة عمل له، بعد سيل من الرسائل الإلكترونية التي أغرق بها مواقع التوظيف، وقد تخلى عنه الأصدقاء والرفقاء رغم وعودهم بالمساعدة. أنت لم تعد صغيرًا ياياسين، أنت في منتصف الأربعينيات، من سيستعين بخبرتك؟ لم تعد الخبرة تهم هذه الأيام.

استيقظ مبكرًا كعادته، وراح يتأمل وجهه في المرآة، لا يدري متى انتشرت تلك الشعرات البيضاء في شعره وذقنه! ربما عليه أن يحلق ذقنه فيبدو أصغر، غمغم لنفسه في المرآة، أي شيء، سأفعل أي شيء؛ لأنتشل نفسي من دوامة يأسي هذه.

حلق ذقنه وأخرج زجاجة العطر الأخيرة التي اشتراها قبل الاستغناء عن خدماته بشهر، ربما كان يأمل في ترقية عندما اشتراها، من كان يدري أنها ستكون آخر ما يشتريه لنفسه، بعدها كان عليه أن يكون حصيفًا وحريصًا مع

المبلغ المتبقي حتى لا يشعر أن زوجته تتسلم دفة القيادة في البيت بمرتبها. حاولت المسكينة أن تطمئنه على موقعه على رأس الأسرة، ثم استسلمت لانسحابه ونوبات اكتئابه وعزوفه عن المشاركة في أي مناسبة اجتماعية، مع إخفاقاته المتكررة في الحصول على عمل.

على الإفطار، تأملته زوجته باستغراب، ثم ابتسمت في مرح..

- تبدو أصغر من عمرك يا حبيبي بدون اللحية، قبلته مسرعة، ثم استوقفها يطلب منها أن تأخذ مفتاح منزلها، هو لن يكون هنا ليفتح لها عندما تعود، ولن ينتظر ابنتها عند عودتها من المدرسة، ولن يسقي أصص الزرع في الشرفة، هو ذاهب للعمل اليوم. توقفت زوجته للحظة ثم ابتسمت في قلق ممزوج بالدهشة..

- حسنا، بالتوفيق.

دخل بخطا حثيثة إلى بهو الشركة، سلم أوراقه لسكرتيرة المكتب التي ابتسمت له ودعته أن يجلس لحين انتهاء المدير من بعض أعماله. ابتسم لنفسه، كانت له غرفة مماثلة وسكرتيرة تنظم أعماله، كان هناك خلف المكتب الكبير واستمتع بنشوة الإنجاز، وهاهو الآن يجلس أمام الغرفة كطالب ينتظر الدخول إلى بهو الامتحان.

انتظر قليلًا قبل أن تدعوه السكرتيرة للدخول. سلم على المدير بحرارة زائدة بينما قابله الرجل بفتور مفتعل. هذا المدير الشاب ربما تدرب تحت يدي

يومًا، تبدو ملامحه مألوفة، كذاك الشاب الذي أخذ مكاني. قلب المدير الملف المقدم له من السكرتيرة، وهو يزم شفتيه، ويرفع حاجبًا، ثم يومئ برأسه، والمهندس ياسين يحاول استقراء وجهه؛ لعله يحصل على بعض الإجابات لتنقشع ضبابية الموقف. هل عليه أن يخبره أنه أتى في سلام، وأنه لم يأت ليأخذ منصبه؟ هل سينظر إلى سنه أم إلى تاريخه الوظيفي؟ السؤال الذي كان يلح على رأسه، هل مازالوا يستخدمون رصاصات رحمة للخيل المسنة؟

ابتسم المدير وهو يبعد كرسيه عن المكتب، وبابتسامة باهتة تمامًا كالأزهار الاصطناعية التي تملأ غرفته هب واقفًا وهو يمد يده إلى المهندس ياسين بملف أحمر.

تلقف ياسين الملف باهتمام وأخذ يقلب صفحاته البيضاء تمامًا كأيامه التي أضحت خالية من الشغف وتساءل وهو يغادر الغرفة:

- هل علي أن أملأه بسيرتي الذاتية من جديد؟ تصنع الرجل خلف المكتب انشغالًا وهو يومئ أن نعم.

لم يلحظ المهندس ياسين وهو يدس الملف في حقيبته الجلدية الفاخرة، ويهم بالخروج من حجرة المكتب للغرفة المجاورة؛ ليملأ أوراق الملف الجديد، لم يلحظ الورقة الصفراء الصغيرة التي "وُصِم" بها ملفه

- " مؤهلاته تفوق احتياجات الوظيفة ".

نافذة القطار

من نافذة القطار، تحدق في الأشجار الراكضة على جانب الطريق، وتتساءل داخل نفسها ضاحكة، لماذا تسابق تلك الأشجار القطار؟ لماذا لا تقف في مكانها وتكتفي بالتحديق في ملامح المارين دون أن تحاول اللحاق بمكان لا يأتي! اعتادت أن تسافر وحيدة؛ لزيارة أخيها الذي يقطن في محافظة بحرية، حتى سار السفر الأسبوعي طقسًا أسبوعيًا لا يتغير، كأنها تهرب من نهايات الأسبوع، هي تقضي معظم وقتها: إما حبيسة غرفتها متعللة بمشقة السفر، أوعلى شاطئ البحر؛ لأنها تحتاج لتغسل وجع أسبوع العمل.. ترى.. هل تفتعل مشاعر مزيفة لتهرب من كلمة.. نهايات..

السفر الحقيقي دومًا كان بين مدن أيامها، تلوك الأحداث والوجوه حتى تشعر بمرارتها في حلقها؛ فتبتلع الذكريات وتنهض لتحتسي بعض أحداث يومها الجديد، هكذا تعيش مسافرة طوال الوقت.

بعد أن نقّلت نظراتها بين العيْنيْن الهائمتيْن للفتاة الجالسة قبالتها وباقة الأزهار التي تحتضنها... تداعت الذكريات تطرق باب ذاكرتها، اعتاد أن يأتيها بزهرة صباحية كل يوم، واعتادت أن تنتظر زهرته كإعلان حقيقي عن بداية اليوم، كانت تقابله بابتسامة مشرقة كزهرة دوار الشمس ونظرة رقيقة كزهور الليلك، وتملأ طريقهما إلى العمل بهمساتها الحانية كزهور الياسمين، وهو كان حانيًا

دافئًا كقهوتها الصباحية التي تحضرها له كل صباح في أكواب ورقية مميزة، يتضاحكان كصديقين ويتهامسان كحبيبين، والجيران يستمتعون معهما ببرعم الحب بين الخطيبين، إلى أن جاء وقت السفر، سيسافر لجمع بعض الأموال،

- وما حاجتنا! أنت مستقر في عملك ولدينا ما يكفينا، لكنه أصر واستسلمت لاختفاء زهوره الصباحية، كأنه سقط في ثقب أسود، أم أنه سقط في اختبار الغربة؟ الحقيقة أنه نجح في اختبار مشاعر الفتور بامتياز، ربما علينا أن نبتعد قليلًا لنرى هل حقًا نحن قادرون على المحافظة على جذوة الحب، البعد اختبار حقيقي؛ ولكنه قاس حين يكون قرار البتر أحاديًا، حين تكتشف أنك تشتعل داخل بوتقة من الثلج! كانت تجرجر أذيال أيامها وحيدة في انتظاره وهو لا يكتفي من أيام الغربة، ثم باغتها بطعنة النهاية، سيعود مع زوجته التي تحمل نفس جينات التطلعات التي لا تنتهي.

عادت بروحها إلى مقعدها في القطار بعد رحلة الذكريات، نظرت إلى المسافرة على المقعد المقابل وأردفت باسمة.. كنتُ أعشقُها مثلك تماماً، ردت الفتاة بنظرة متسائلة، فأردفت باسمة:

- الأزهار يا عزيزتي. كنت أعشق الأزهار؛ لكني اكتشفتُ أنَّ الأزهار الاصطناعية.. أيضا لطيفة.. بشرط أن لا تقتربي لتتفقّدي تفاصيلها المزيفة، هي لن تحتاج إلى سُقيا ولا رعاية.. وأنتِ لا تطلُبي منها عطرًا ولا حياة.. قرّبت

الفتاة باقة الأزهار إلى صدرها وقد اتّسعت عيناها في حزن ممزوج بالشفقة على تلك الجالسة قبالتها. أطرقت وهي تشعر بالحزن ثم رفعت رأسها من جديد للفتاة التي تنهدت، ثم غمغمت قائلة:

- وضعي أُصُص الزهر الفارغة بعيدًا؛ فهي ستذكِّرُكِ دومًا بالتصَحُّر الممتد إلى مروج ذاتِك، ثم أشاحت ببصرها بعيدًاً، إلى الأشجار الراكضة على جانب الطريق وهي تحدِّث ملامحها الباهتة على زجاج النافذة.. لن تعرفي أبدًاً.. متى تكون آخر الباقات؟!

فـــراق

بخطا متثاقلة أمام إلحاح هاتفها، نهضت من الأريكة وسارت كالمنومة.. كانت تبدو كأنما أضيفت عشرات الأعوام إلى كاهلها، لم تنتبه للاسم الذي يصر على مكالمتها. ما أن قربت الهاتف إلى أذنها حتى جاءها صوته عذبًا رقراقًا كأنه يغتسل في أنهار اللهفة، ويتعطر بمسك الشوق. همس لها كعادته:

- أشتاقك جدًاا.. أين أنتِ؟

تسارعت نبضات قلبها وابتلعت حريقًا نشب في حلقها، وتصاعدت آهات كانت تختبئ في رئتيها، تجمعت في مظاهرة حاشدة وفشلت في تفريقها فخرجت صرخة واحدة. صرخت بحجم الوجع الذي سكن قلبها وبقوة شرك الخذلان الذي أوقعها فيه خيانته لقلبها، وعلا نحيبها وهي تلهث..

- ابتعد عني.. ابتعد عني.. ماذا تريد مني مجددًا؟

التف فحيح صوته الهادئ حول عنقها مهدئًا لها، فألقت الهاتف وركضت متعثرة تدفع النافذة بكلتا يديها بحثًا عن هواء يعيدها على قيد الحياة.. فطالما كان صوته أكسجينها الذي يعيدها على قيد الشوق!

شهقات متتابعة غسلت آثار اختناقها ثم تكورت على أرضية الغرفة كفراشة خرجت من شرنقتها قبل أوانها، ضعيفة هشة، مرتعشة كورقة تحت أمطار الشتاء.

انسلت خيوط الذكريات تلفها من جديد، قال إن قاربه يبتعد إلى حد التيه ثم يرسو على أعتاب عينيها.. فأدمنت التحديق في آخر أشرعة النهار المسافرة إلى ليل اختفاءاته؛ علها تكون فناره وعله يعود إلى شواطئها، قال إن نوارس الوجع تحلق فوق أيامه، وأنه يغترب بين أمواج البعد؛ ليعود لها بلآلئ ولعه، فكانت تسامر الأصداف وتهمس للرمال أن اطو بعده وأرفقي بشوقي وامسحي على وجده يرتد حبيبًا.

وفتحت عينيها ذات سراب، وقد توغل ملح الخذلان في ذرات روحها، كانت تشعر يومها أن هناك خطبًا ما، راحت تفتش في بريدها الالكتروني وهاتفها عن رسالة منه، وخزة في قلبها تكبر شقا، ويعلو نحيب قلبها بشعورها أنها فقدته لعالم آخر. ولم تدرك أنها فقدته لأخرى إلا عندما قرأت رسالة منه مرفقة بدعوة حضور عقد قرانه وكلمتين باهتتين كبقايا بتلات الورد على أرصفة الخريف، باردتين كتعازي الغرباء.

أربعون يومًا وهي تتشح السواد على وفاة حبها، كيف تخرجه من دورتها الدموية وقد سكن شغاف القلب؟ كانت تنزفه دمعًا على وسادتها حتى تغفو، فيربت على خوائها من جوف الحلم ويعيدها صباحًا على قيد الشوق. أي وجع هذا الذي أغرقها به!

واليوم يهاتفها كأن شيئًا لم يكن! ككوكب منفي من مجموعته يريد أن يعيدها إلى مداره من جديد!

استفاقت على أوشحة الشمس الملقاة على أرضية الغرفة وقد رسمت خيالات لأشباح من الشفق الأحمر تتحرك في إيقاعات متناغمة، خالته يراقص زوجته، وقد تناءى ظلها هي وانزوى في ركن الغرفة، ثم انسحب الظلان يتعانقان وظلها قد تضاءل وارتمى بجوارها، اعتدلت وهي تنفض عن رأسها تلك الخيالات وكحل البكاء قد خط خطوطًا سوداء على وجهها. لملمت خصلات شعرها الثائرة على وجعها دونه.

تجولت ببصرها في أرجاء الغرفة التي تحولت إلى ضريح لذكرياتها، هذه آخر باقات زهره إليها، وهذا الإطار الفضي كان هديته لها في يوم ميلادها، وتلك الكرة الثلجية كانت.. تكبلها لفتاته فتغمض عينيها بحثًا عن حريتها منه. كانت تدور حول نفسها وتتلمس طعنات غدره في خاصرتها، لابد أن تضيفها إلى سجل هداياه.

بعد أن أخذت حمامًا ساخنًا وأعدت لنفسها ما يقيم أودها، جلست تحتسي قهوتها كما تفضلها دومًا..مرة كذاكرة الوجع، ساخنة كمشاعر اللهفة، ثم قامت في محاولة أخيرة للفكاك من ذاكرة الكآبة، حملت صندوقًا كبيرًا من المطبخ وجعلت تضع فيه كل هداياه، من يزيح ذكرياته من رفوف عقلها المتخم باللحظات الخاصة! لقد أجاد حياكة شركه وهي استمتعت بالوقوع فيه. انتهت في لحظات، كيف لعمر أن يخزن في صندوق واحد في دقائق معدودة! سارت تحمل ذاكرتها في اتجاه باب المنزل، عندما دق جرس الباب، وضعت

حملها وفتحت الباب، كان هناك يقف قلقًا، كمن يمشي في حقل للألغام، يسألها عن أحوالها! هل استعادت هدوءها؟ هل يستطيع أن يراها؟ هناك الكثير الذي يريد أن يقوله لها، ثم سكت برهة قبل أن يقول كلمته التي طالما أعادتها إلى مداره..

- أشتاقك..

ملأت صدرها بالهواء قبل أن تقول بهدوء..

- وأنا أيضا.. أشتاقني، أشتاق لأن أعود بلا خذلان.. بلا وجع، أشتاق إلى نفسي الأولى التي لم تعرف الحيرة ولا انتظار من يقف دومًا على بعد خطوات من اللقاء.. أشتاق حقًا إلى من يهدهد وجعي على ترنيمة صدق.

كانت عيناها تبحران بعيدًا عنه حتى أنها لم تعد تراه. خطت خطوات خارج باب شقتها تجاوزته ووضعت صندوق ذكرياتها على الأرض بجوار سلة المهملات، واستدارت مبتعدة عن هالته التي طالما اجتذبتها وأغلقت الباب خلفها. أسندت رأسها على الباب وهي تسمع خطوات خيبته راحلة من عالمها..

- نعم أنا أيضًا.. أشتاقك.

ألــوان الظـلام

استيقظت شاردة.. تتجول في مرفأ أيامها، وصرير لياليها المخنوقة بالألم يثقل خطواتها، وخيوط الظلام تحيك على قلبها المتعب ستائر حزينة تلقي ظلالها بين جفونها المكحولة بالدموع فتجعل أنفاسها ثقيلة هادئة ومحترقة، وقد استحالت الأيام ليلًا طويلًا بلا أشرعة شمس في بحر عينيها، ظلام يلف دنياها منذ حادث السيارة الذي أودى بحياة زوجها وأطفأ نور عينيها. خبرٌ احتل الصفحات الأولى بوفاة زوج الفنانة التشكيلية منى الوكيل وفقدانها البصر، ثم سرعان ما خفت اهتمام الجميع، وباتت هي حبيسة وجع لا ينتهي بعد أن تعافت وخرجت من المستشفى إلى منزلها بصحبة ممرضة مقيمة تعاونها في ليلها الأبدي. قلت الزيارات بعد أشهر من الحادث، وبدت وحيدة بعيدة عن عالم أغلقت بوابته بإحكام ولا يحمل مفاتيحها إلا تلك الممرضة التي أصبحت تستعير منى عينيها؛ لتعرف ماذا ترتدي، وكيف تتحرك، وأين هي.

تتحسس بأصابعها زر النور بحركة تلقائية، وتقف في باب الغرفة تنتظر أن يتسلل مشهد جديد إلى عينيها؛ ولكن دائمًا لاجديد، فقط لوحة سوداء تحدق فيها إلى مالانهاية. لا قوس قزح على نافذتها بعد المطر، لا شلالات نور تنهمر إلى غرفتها صباحًا، ولا ابتسامة عينيه التي تعشقها وقد رحلت وتركتها في ظلام عابس. التفتت إلى صوت الممرضة سامية التي تلازمها منذ عودتها

للمنزل، وهي تخبرها بصرامة أن عليها أن تنتهي من إفطارها حتى تستطيع إعطاءها أدويتها. ابتلعت ريقها وزمت شفتيها، وانصاعت لأوامر سجانتها المسؤولة عن تعليمها كيف تتعامل مع مفردات أيامها الجديدة. متى يأتي يوم جديد؟ ينتشلها من بئر البؤس الذي سقطت فيه، أشعر أني بدأت أنسى أشكال الأشياء، والوجوه، بدأت أنسى حتى الألوان، امتعضت الممرضة وقالت بصوت متجهم:

- كيف لفنانة مثلك أن تنسى؟ هو اختيارك، إما أن تقاومي وتستندي على يديك وحدك أو تقبعي مكانك في الركن المهمل الذي اخترته لنفسك. أنت تجنين على نفسك، غمغمت وهي تبتعد عنها.. امرأة عنيدة، ساعدي نفسك يا امرأة.

كانت كلمات سامية سياطًا تجلد ضعفها، تطعنها في حيرتها، كيف لها أن تساعد نفسها وهي غارقة في هذا الظلام الذي يطمس كل شيء حتى إرادتها.

انحدرت على وجهها دمعات بلون الوجع وطعم القهر سارعت بمسحها قبل أن تستجلب غضب سامية على قلة حيلتها من جديد. هذه المرأة بلا قلب، هي قطعة من العذاب وليست ملاكًا للرحمة بأي حال. في المساء، بعد أن طلبت مُنى من سامية أن تأخذها إلى فراشها، أخذتها سامية من يديها ودخلت بها إلى الحجرة التي كانت تتخذها مرسمًا، شهقت منى، عندما اقتحمت رائحة الغرفة ذاكرتها المهترئة، وسحبت نفسًا عميقًا كأنما تتنسم عبير

الألوان إلى مخيلتها من جديد، ولكن فجأة انسحبت الحياة من وجهها وبدت باهتة كشاهد قبر، لماذا أتيت بي إلى هنا؟ أيتها الماكرة، تريدين تدميري! تقتاتين على وجعي! أي ممرضة أنت! استدارت سامية في هدوء وتركت منى وحدها، اندفعت منى بيديها تتحسس أنابيب الألوان، شوقًا وألمًا، بكت كثيرًا وهي تربت على شعر فرشاتها القابعة في هدوء بلا حياة، احتضنت اللوحة البيضاء الموضوعة على الحامل طويلًا حتى بللتها بدمع اللهفة، ثم نهضت وسارت بحذر بين اللوحات المتناثرة على الحائط تحدق فيها وتستحث ذاكرة يدها وهي تمر عليها كعاشق يتبتل في محراب الجمال. نامت ليلتها في المرسم، واستيقظت يداعبها حلم بلوحة جديدة، فتحت عينيها، ونادت على الممرضة، فجاءها صوتها قريبًا في التو، هل باتت الليلة بجانبها؟ هل جاء الصباح؟ كم مر علي من الوقت؟. أنهضتها سامية، وأجلستها على كرسيها، ثم قالت بلهجة جافة:

- لقد رتبت لك الألوان، سأخبرك بترتيبهم مرة واحدة وعليك أن تحفظي جيدًا فلن أعيد ما قلت مرتين، أمسكت بيدها ومررتها على الأنابيب في العلبة وهي تسمي الألوان ثم تركتها لتحضر لها الإفطار.

أخذت منى تمر بكلتا يديها على أنابيب الألوان تعيد في ذاكرتها الترتيب الذي ألقته على سمعها الممرضة سامية، وتبتسم بلهفة لشلالات الألوان التي تفجرت في مخيلتها، ولكنها لم تنتبه وقد سقطت الفرشاة من يدها على الأرض،

فجثت على ركبتيها تبحث عنها، وعجزها يثقل رأسها ثم قامت واعتدلت فاهتز الحامل وسقطت اللوحة على الأرض. صرخت صرخة غضب عاد رجعها في الحجرة المغلقة ليصفع وجهها المنتفخ من البكاء، نادت طويلًا على سامية دون استجابة، لملمت خصلات شعرها الهاربات من حصار ربطتها المحكمة، ومسحت وجهها بقوة في راحة وجهها، كأنما تعيد تشكيل ملامحها الهادئة من جديد، تنفست ببطء وهي تتحسس أنابيب الألوان مرة أخرى، واختارت بحذر وهي تعرف أن عليها أن تتذكر ما قالته سامية، عليها أن تعيد كل لون إلى مكانه، عليها أن لا تعول على مساعدة سامية ولا أن تستعيرعينيها أبدًا، اختفاءاتها المتعمدة باتت تضغط على أعصابها المتوترة، تجعلها تمشي على خيط التحدي المشدود بين اليأس والحياة، هذه معركتها وحدها الآن.

بحنان، ضغطت أنبوب اللون على أحد جوانب اللوحة البيضاء ثم مسحتها بحذر بإصبعيها السبابة والوسطى، تسمح للون أن ينتشر على بقعة مختارة من اللوحة، مسحت يدها الملطخة باللون في ملابسها ثم تجولت بأناملها بين الألوان واختارت لونًا آخر.

ظلت منى ترفل في ظلال الألوان ترسم بروحها وألوان حياتها وتعيد ضبط خطوطها بلهفة قلبها، في هدوء لم يقطعه إلا سعلة هربت من شفتي سامية المطبقتين بحذر، التفتت منى..

- سامية! هل أنت هنا؟ انسحبت سامية للخلف في هدوء وهي تكتم أنفاسها، عادت إلى الغرفة المجاورة ووضعت صينية الإفطار التي كانت تحملها وهي تنظر بلهفة إلى منى وهي ترسم من جديد، وقد اهتدت أخيرًا إلى بقعة النور التي تعيد لها شغفها المفقود، ثم انفجرت في بكاء مكتوم، ربتت منى على كتفها وهي تشعر باهتزاز جسدها الباكي، التفت سامية واحتضنت منى في حنان أم عادت لها ابنتها بعد غياب:
- حمدا لله على سلامتك يا ابنتي. حملقت منى في استغراب تتمنى لو أهدتها اللحظة بصرًا لتطابق ملامح وجه سامية مع رقة صوتها الآن، وهي ما كانت تتخيلها إلا كتمثال من ثلج القسوة، تمتمت في حيرة وهي تردد كلمات سامية التي ذابت في ارتعاشة صوتها الحاني..
- ابنتك! ابتسم صوت سامية من جديد:
- دعينا لا نضيع هذه اللحظة الرائعة في حياتك يا فنانتنا الغالية، دعيني أحضر لك كوبًا آخر من القهوة؛ فقد برد وأنا أتابعك من باب الغرفة. تحسست منى ملامح سامية المبتسمة، ثم مدت يدها تحتضن كفي سامية:

- دعيني أعيد اكتشاف روحك يا سامية خلف تلك الغلالة من القسوة التي ألقيتها على أيامنا معا، ثم أردفت وهي تضحك، ولكني أفهم اليوم مغزاها.. ضمتها سامية في حنان:
- دعك مني، حمدًا لله على سلامة شغفك يا ابنتي العزيزة.

فـراشــة مُتعَبــَة

تعثرت في الأرض غير الممهدة، تتلمس بيديها المرتعشتين الأبواب المغلقة على ساكنيها من الأموات في المقابر، تتشابه كل الأبواب الكبيرة السوداء الصدئة، والمباني العتيقة الملتصقة وقد تراصّت في صمت مهيب، ولكن قلبها يحفظ طريقه إلى حيث تستريح أمها، الأمهات أبدًا لا يمتن! إنهن فقط يسترحن قليلًا من وعثاء الحياة، يرحن رؤوسهن على الغيمات ويتأملن أطفالهن من السماء، ويرسلن دعواتهن بالحفظ والرعاية مع نسمات الفجر البكر، هي مازالت توقن منذ طفولتها أن أمها تسمع وقع حنينها وخطوات شوقها، وفي كل مرة يلفظها الزمان إلى أراضي الحزن تجد نفسها أمام قبر أمها. وصلت إلى المكان الذي يضم أمها، تأملت اللوحة الرخامية التي تحمل لقب جدها، وزفرت ألمًا.

دفعت الباب بقوة لا تدرك أنها تملكها، وصرير بكاء الباب يعيدها إلى يوم جاءت مع أبيها لوداع أمها، كانت تتساءل في وجع..

- هل سنتركها هنا وحدها؟ هل ستعود إلينا قريبًا؟ كانت في العاشرة من عمرها وعقلها الصغير لا يأبه بما يقولون، أمي قالت إنها ستظل معي، تعلقت الصغيرة بيد أبيها ترجوه أن تجلس قليلًا عند أمها. همست طويلًا يومها لأمها بهمهمات روحها، تعاهدها أنها ستأتي

إليها في أحلامها، وستوسع مكانًا في قلبها لن يطأه غيرها أبدًا، ظلت تئن أمام القبر إلى أن جذبتها خالتها بعيدًا وحملتها وهي تحدق في اللاشيء. كانت تحفظ تلك اللحظة كالوشم على روحها، وتعيدها بوصلة حزنها إلى هذه البقعة من الألفة والراحة كثيرًا خلال الثلاثين عامًا المنصرمة من عمرها، لحظات تفرغ وجعها في حديث لا ينتهي.

جلست على الأرض بجوار القبر..

- أمي، أتذكرين تلك السلسلة الذهبية للفراشة ذات الألوان الزاهية التي أهديتيني إياها؟ كانت أجنحتها مزيجًا من اللون الأخضر كالأمل الذي زرعتيه فيّ، والأزرق كسماء أحلامي آنذاك، والبرتقالي الدافئ كشمس ابتسامتك التي لم تغب حتى عندما غبتِ. أتدرين يا أمي أني ظللت ألبسها لأعوام عديدة، تلك الثقوب السوداء في ذاكرتي المهترئة باتت تبتلع الأسماء والتواريخ فلا أتذكر، ولكني ممتنة للنسيان، فهو يبقيك على قيد الحياة ويبقيهم بعيدين عن دوائري التي تأخذني دومًا إليك. ولكني ارتديت أجنحة الفراشات لأعوام عديدة، ثم انقطعت السلسلة ألف مرة، وفي كل مرة كنت أهرع بها إلى الصائغ لإصلاحها، وبعد المرة الألف بات يهز رأسه أسفًا ويمط شفتيه، ربما أصبحت مُتعبَة، تمامًا كقلبي، وبها ألف كسر كروحي، وآن لها أن تستريح، ولكني لا أجد الراحة يا أمي في هذا العالم، نعم

يا أمي كانت ملامح الصائغ تشي بأن تلك الفراشة لم تعد تناسبني، أو أني لا أستحقها.. تمامًا كما يعكف محمود مؤخرًا على قول إني لست الزوجة التي تمناها لنفسه، وأنه لم يعد يتحمل نوبات اكتئابي. لم تكن عمتي محقة عندما أقنعت أبي أن بوابات السعادة ستفتح لي بزواجي، وأنه سيطمئن علي مع محمود. محمود! هذا الذي يتعثر في كل مرة أصطحبه فيها إلى طرقات روحي، يجفل أمام أوجاعي، يهز كتفيه في استهزاء من حزني، ولا يتحمل أن يقترب من همي، كأنه مرض معدي. وكيف لهذا الصائغ أن يعرض علي فراشة جديدة؟ تدحرجت من عينيها دمعة حزينة على حالها.

في الصباح، أتى الحارس ليغلق الباب المفتوح، كان جسدها البارد يحتضن بعضه، يربت على خواء ايامها التي انطفأت بوفاة والدتها، وعاشت تتلمس وهجًا كاذبًا من جسد مسجى في التراب، كانت تحتضن قلبًا أنهكه الفقد وأرّقه البعد، وفشل في التكيف مع عالم لا ينتمي إليه، ظلت تتأرجح بين موت تعيشه وحياة تنتظرها هناك.. مع أمها..

فـارس أحـلام

انسلت الرؤى من شرنقة الوعي إلى فضاء الحُلم، فتساءلت مع ذاتها في حيرة، هل يمكن لملامح الحلم أن تستوعب شخصاً بعينه؟! وكيف يستوعب خيالها الغني فقر لحم ودم!

هي قصاصات من حنين لمن يستوعبها، يحتوي جنونها، ويقلم أظافرغربتها عمن حولها. صداقاتها قليلة تكتفي بابتسامتها العذبة ولا تقترب أكثر ممن حولها، فصفحة قلبها العذبة لا تتحمل الدوامات التي تحدثها صخور من يمرون بهذا القلب الصافي، تبدو كزهرة أغلقت بتلاتها عليها، واكتفت بقليل من أشعة الشمس تبقيها على قيد التواصل. أحلام كان لها نصيب من اسمها.

هل حقا يمكن أن يستوعب خيالها فقر لحم ودم؟ أم أنه كان زائرًا من عالم آخر، حط رحاله في زمان غير الزمان ومكان غير المكان لينقذها. أصبحت مولعة بذاك الفارس الذي أنقذها ذات أنين، عندما خانتها مكابح سيارتها واختارت أحلام أن ترتطم بسور على الطريق بدلًا من أن تصيب بسيارتها التي خرجت عن السيطرة أحد المارة أو أن تحدث أضرارًا في السيارات من حولها. يومها أزاح فارسها المارة الذين تجمهروا ليمدوا إليها فقط يد الحوقلة وكتف الشفقة دون أن يبادر أحدهم بمحاولة إخراجها من باب السيارة الذي انبعج

وحبسها في آلام الارتطام الرهيبة. لكنه بادر بفتح الباب الآخر وركب بجوارها وعيناه كأنما خلقتا من قلق.. وبادرها بسؤال..

- هل أنت بخير؟ أي سؤال هذا! حتى هو استدرك إلى أنه يحتاج تعريفًا أكثر دقة لكلمة "بخير"، هل يقصد أن يسألها إن كانت مازالت على قيد الحياة؟ إذا هي بخير.. ولكن جسدها كان قد احتلته الأوجاع، وعقلها استسلم للذهول. ثم تدارك وقرر أن يكون أكثر تحديدًا.. هل تستطيعين تحريك ساقيك؟ التفتت إليه في هلع وابتلعت وجعًا يلهب صدرها كلما حاولت أن تملأ رئتيها بالهواء. اكتفت بإيماءة بعد أن اختبرت تحريك ساقيها. نظر في عينيها مطمئنًا، ثم مد لها كفًا فينان..

- هل تستطيعين أن تساعديني كي أخرجك من هنا؟

لا تذكر أحلام شيئًا سوى أنه حملها بين ذراعيه ومددها في سيارته وطار بها إلى المستشفى، رغم تحذير المارة من المسؤولية التي قد تلقى على عاتقه جراء شهامته غير المحسوبة!

في المستشفى أجرت اتصالًا هاتفيًا بوالدها، الذي جاء مسرعًا، شد على يد فارسها وشكره كثيرًا على اعتنائه بابنته، وبابتسامة وارفة، حياها ورحل بعد أن اطمأن أنها أصبحت بخير.

بعد أعوام من الحادث ظلت تتساءل في خيبة..

- ترى أين هو الآن؟

تسرع في خطواتها داخل ذاتها حتى لا تتأخر عن موعدها مع بقايا يومها، بعد أن تضع إكليل زهور على ضريح العمر، يتراءى لها خياله فرسًا جامحًا.. يقترب فتقترب.. فيجفل، تمامًا كالذكريات داخل عقلها المتخم بالرؤى التي لا تجيئ، وآلاف اللقاءات التي رسمتها وأبدًا لم تكن. اعتادت أن تقف عند مكان الحادث، تلصق وجهها في نافذة السيارة، ثم تبتسم للملامح الباهتة على زجاج النافذة لذكرى مرور طيفه على أيامها.

واليوم تتم خطبتها، لرجل لا يحمل ملامح فارسها، وكان عليها أن تأتي لتودع حلمها. وقفت عند مكان الحادث تمزق كل الصور التي طالما علقتها له على جدران قلبها، لن تستطيع بعد الآن أن تحتفظ بخياله، ولن تستمتع بوجع الانتظار اللذيذ. الحياة لا تتوقف.. إلا عندما تسترق بضع لحظات داخل ذاتها.. ترفل في حدائق الحنين المنسية.. طرقات بكر لا يطأها غيرها، وتستعيد وهج اللحظة رغم ما كان فيها من ألم. تمتمت لنفسها بعد أن ترجلت من سيارتها، ليس هناك من يبحث عني خارج أسوار حديقة روحي، وهو لم يأت أبدًا ليسقي أزهار حلمي على الجانب الآخر من النافذة، كل ما ظل هنا منذ التقينا نوافذ أتعبها التحديق في المدى، وفارس عبر هذا القلب.. ومضى.

ذاكـــرة الألـــم

أغمض عينيه على صورتها التي سكنت عينيه سنينًا هي عمر علاقتهما، علّ حبهما يستيقظ في أحلامه، فيتراءى له الحُلم على ناصية اليأس، لايُعيده على قيد الأمل؛ بل ينتزعه من راحة الركود إلى عناء الإستفاقة. في كل مرة يعيد مشهد الوداع في ذهنه من جديد، تلتف حول عنقه نفس الاستفهامات الخانقة، كيف قررت أن تحمل انتظارها وترحل في ثبات رهيب؟ كأنها استعارت قسوة الصبارات ومرارة القهوة وتركته بين شقي رحى الخذلان والفقد!

يُجرجرُ ذاته المنهكة لبداياتٍ مُبهمة تبدو كنجمٍ بعيد يخشى أن يصلَ إليه فيجدَهُ غبار ضوءٍ لا وجود له كأغلب محطات حياته، أقنعه صديقه أنه ما إن تدرك حبيبته أنه يبحث عن قلب آخر إلا وتندم وتعود له بعد أن تتأكد أنه لن يرضخ لطلبات أبيها المغالى فيها، كان يأمل صديقه أن يدرك هو أن أباها لم يكن ورقة ضغط بقدر ما كانت هي كتاب خذلان. ولأنه لا يمتلك رفاهية السكون، والعمر يتسرب من بين يديه، كان يدورُ رغمًا عنه باحثًا عنها في دوائره المفرغة إلاّ من وجَع انتصاف الطريق إلى نهاياتٍ مؤجلة، وهو غارقٌ في خيباتِه المضنية، كسرابٍ في صحراءِ الوهَن يرويه فيزداد عطشًا لِفرحةِ الوصول، رغم التّيه الذي ألقى نفسَه في دواماته بإرادته الواهية، في انتظار

عودتها المأمولة، كان عليه أن يسحب نفسه مِن خوائه دونها ويحتضنُ بقايا عنفوانٍ هَمَّ أن يُغادره، ويُلقِي بروحِه المُتعبة على كتفِ الانتظار.

ماذا كان عليه أن يفعل وحبيبته لم تعره انتباهًا وأتمت الصفقة التي عقدها والدها مع أحد الجاهزين كما نعتته له. وأمام شلالات إلحاح صديقه التي جرفته لرؤية من اختارها له، ذهب لزيارة منزل عروس جديدة، هل رآها حقًا حين رآها؟ هل كان يهربُ مِن موتِه المحتوم دون حبيبته إلى موتٍ يليق به مع غيرها! أم أنّ حنينَه إلى الفرح أخذه إلى خيالات بِلون المطر! يغسل ألم روحه، كان يحاول أن يخفي أثار انسحابها من دمه، أن يسلّها من خلاياه وينزع عنه غلالةَ الكآبة التي شرنقت أيامه بها، لعل هذه الفتاة المختارة من صديقه تأخذ بِيد استسلامِه الضرير إلى طُرُقات الإبصار وساحات الإصرار حيث يكتشف ذاتَه المُختبئة تحت عباءة ليلٍ بات يخافُ الصباح.

وكزه صديقه وهو يستعد للصعود إلى شقة العروس المختارة في المرة التالية، كان يهزه ليستفيق.. دعك من احتراقك الداخلي وهمهمات المغيب حول قمرٍ لا يُشرق ومُدَّ يديك لاحتضان الحُلم الجديد، أشعِل سماءك بلهفةٍ لِغَد قد يباغتك وأنت تقف هناك عند حافة الكون تنتظر حافِلةَ الوقت، أتنتظر حلمًا منتهي الصلاحية لِيقلّك إلى لحظاتِ الوهَج؟ رُبما عليك أن تستعيد أجنحتك وتمضي إلى حيث تشرق شمس جديدة في سمائك.

ثمل من نظراتها الحانية فضحك ليلتها، كان يبدو أنه استعاد قليلًا من ذاته القديمة، مع كثير من المبالغة، كمن يضع مساحيقًا ليخفي حقيقته، يتوارى خلف ابتسامات مفتعلة كممثل فاشل، حتى تحسست خطيبته الجديدة آثار جرحه القديم، سألته عن سبب وجومه في المرات الاولى التي زارهم فيها:

- كنت تبدو تحت آثار وجع قديم، جرح ربما أو فراق! هز رأسه لينفض عنه وجه فتاته القديمة، لكن ذكرياته معها تناثرت من روحه حتى ملأت المسافة بينه وبين خطيبته الجديدة. ترنح أمام دموع خطيبته وهي تخبره كيف كان يبدو وهو يتكلم عن حبيبته السابقة، كيف لمعت عيناه رغم الألم، ربتت على يديه وهي تخبره أنه لم يتعاف بعد، ولاحاجة له أن يتعجل مادامت هناك من تسكنه، ربما يحتاج مزيدًا من الوقت.

ظل يقود سيارته طوال الليل، يصرخ في الفراغ من حوله، يبكي قليلًا، ثم ينفث دخان سيجارته في غضب، هاهي رغم البعد تفسد بداياته الجديدة. اعتاد هذا الصداع الذي يقسم رأسه، كعناقيد من الألم تتدلى إلى جبهته، وتعصب رأسه، ومع بدايات الفجر الذي لم يغير شيئًا من ليله الداخلي، كان يقود منهكًا وقد بدأ يشعر بخدر في جسده، صف سيارته تحت منزله، حاول أن يفتح الباب، ولكن جسده استسلم لتشنجات عنيفة ثم ما لبث أن تخدر جسده وهو بالكاد يتنفس ومرارة الأيام في حلقه تزيد من شعوره بالغثيان، تنفس ببطء وذاكرة وجعه تخبو وهو يريح عمره على مقود سيارته.

وحيـــدًا

وحيدا.. كبقايا النور الملقى على أعتاب الظلام، يلملم وجعه المحفور على حنايا وجهه في ابتسامة تتعثر قبل أن تأخذ مكانها على شفتيه، تذوب كلهيب ضوء لشمعة خافتة، ترقص رقصتها الأخيرة قبل أن تنطفئ. نعم ينطفئ من فقد نصفه الآخر، حين يكون هذا النصف هو العالم كله، يمشي بقلب أعرج، يتعكز على أطياف الذكريات، ويطأ بعرجته أرض الوحدة القاحلة. تململت في صدره آهة، زفرها لتتحرر من حريق رئتيه إلى برودة أيامه. نداءات النوارس فوقه أخذته لذكراها، فجلس على السور الحجري للشاطئ وألقى بقلبه في دوامات شوقه لها.

كانت في حياته كحلوى العيد، كابتسامة الصباح، كاحتضان كف الوليد. لم يعد يذكر ماراثونات الجدال وركضه خلف لهفتها لاحتضان البحر، والتوحد مع أزهار الحديقة. لم يعد يذكر كم مرة ناداها وعجز عن انتشالها من أعماق كتاب! كم مرة عانى من نوبات اكتئابها في غياب أشرعة الشمس الراحلة خلف تلال الغيم! كانت تتعلق به كطفلة صغيرة تفتقد الأمان وتشارك الغيم بكائياته كل شتاء، فيربت على روحها ويتلعثم أمام أنينها، ويكتفي بصمت يشق ضجيج روحها، كيف له أن يعرف ماذا يقول عن مشاعر لم يختبرها! كيف يحتضن دوامات مشاعرها دون أن تسحبه إلى عالمها السحري الذي يخاف أن

يذوب فيه، دأب أن يهز رأسه أسفًا على رقتها التي تخلع صدره وهو لا يفهم، كيف يعيدها إلى عالمه وهو لا يملك غبارًا سحريا ينقله لعالمها، ربما كان اختلافهما قدْر ما منحها كتفًا تستند عليه وصدرًا يحتوي جنونها قدْر ما تركه حائرًا بين اقتراب يأخذه لجنون يحبه وبين تذمر من طفولة قلب لا يفهمه.

- لماذا وافقتِ على الارتباط بي؟ كان يكفيها أن تهز كتفها وتمطره بقبلات الفراشات..

- لأنني أحببتك.

وحيدًا وقف أمام تلاطم الأمواج يعيد تشكيل المنظر من مكانه بجوار السور الحجري بعيدًا عن رمال الشاطئ، صار يقترب بقلبه فقط، ولم يعد يغريه أن يقترب من الأمواج، يكفيه أن يستمع لبكاء الأمواج وهي تجلد ذاتها على صخور الشاطئ، ويراقب انسحابها لتغرق وتغرقه في وجعه أكثر. شهق شهقة، بعد أن نزل سلمات الدرج الحجري وخلع حذاءه، ولامست قدماه الرمال، أحس بخفة وهو يخطو بلهفة، كأنه استعاد روحه، أو استعار روحها، جلس على الرمال يمرر كفه بحنان على وجنة الأرض، ابتلع مرارة فقده وملأ رئتيه بالشوق..

- أشتاقك، أفتقدك، أحبك، أعشق تفاصيل وجودك معي، أطرق ساهمًا..

- هل أخبرتك يا عمري عندما ضممتك كم أحببتك؟ هل شعرت في قبلاتي بوهج روحي لك؟ ألم تخبرك عيناي بولعي؟ أين كانت الكلمات عندما ضممتك لصدري في مرضك الأخير، أين اختبأت الحروف عندما اغتسل وجهك بالدموع خوفًا من فقد الحياة، ولم أمسح دمعك يا ملاكي؛ فقد كان أطهر من أن تمسه يد بشرية، كان ينزف الكلمات بيد مرتجفة على صفحة الرمال، يكتب رسالة بوح ظلت حبيسة أضلعه منذ رحلت إلى تلال الغياب؛ بل ربما طيلة حياتهما معًا.

ظل يكتب بأصابعه، ويقلب صفحات الرمال لتسع حنينه إليها، ويقترب من البحر زحفًا حتى ربتت على قدميه أمواج باردة، التفت للزبد الأبيض الذي يحتضنه بود، لابد أنه كان منهمكًا في الكتابة، فهو لم يعتد أن يشاركها حبها لاحتضان البحر، كان يكتفي بتأملها وهي تسترخي بين يدي من يعرفها أكثر منه، هل كان يغار من البحر؟! ليته شاركها بعض الجنون، ليته باح لها بشغفه بدلا من تشاغله عنها.

كان المرض شغوفًا بها حين ضمها بشدة ثم تركها وقد سحب منها الحياة ومضى، كان الأمر سريعًا حتى أنه لم يستوعب ما يحدث، لم يصدق ما أخبره به الطبيب وكاد أن يفقد أعصابه لولا أنها سحبته من يده وخرجت من العيادة وقد استعارت ابتسامة رضا باهتة؛ لتخفي بها ألمها وهلعها. باقي الصور

مشوشة وكئيبة، لم يستدعها ولكنها الآن تتقافز في عقله وهو يرسم دوائر على صفحة الرمال تضيق وتضيق فتحفر ثقبًا كالذي مني به في قلبه عندما رحلت ذات وجع، كثقب أسود سحب الفرح والبهجة من حياته، وتركه يغرس كل كفيه في وجه الرمال، هل يريد أن يسترجعها؟ أم يريد أن يسترجع نفسه وحياته.

كانت الشمس قد لملمت ثوبها الأحمر وانسحبت أمام عباءة الليل السوداء التي انتشرت فوق الأفق، فاستشرت العتمة إلا من نجمات نثرت ضوءها الخافت فوق المكان، وقف ينفض عنه ما علق به من رمال الشاطئ ولم ينتبه أنه قد تبلل بالأمواج، كانت ستحب هذا الجو وكنت سأتململ وأطلب منها المغادرة.. كانت ستحتضنني وكنت سأتعلل بمراقبة الناس من حولنا.. كانت ستستبق خطاي للسيارة ركضًا وكنت سأسير بهدوء وقد زممت شفتي، تساءل داخل نفسه:

- لماذا لم يشعر بروعة الليل هكذا من قبل! أحس بلمسة حانية على وجنته، فسرت في جسده قشعريرة.. أكان النسيم رفيقًا به يربت على خيبته في فقدها؟! أكانت الأمواج تأسف له وتخبره أن هوّن على نفسك، أم كانت روحها تهمس له أن اللحظات لا تعود؟! كل ما بات يعرفه أنه لم يعد منذ تلك الليلة كما كان..

الفهـــرس

إهـداء 5

أصل ولوحة..... 7

هـذه أنـا.....10

من الطابق الخامس والثلاثين.....13

فقط لبضع دقائق 17

حـالـة 508 20

متى يزورنا صوتك؟.....28

السامـوراي الأخير 31

أطفـأَهـا 37

سؤال جديد.....40

رسالة من العالم السفلي.....48

مسبحة الشيخ بهيّ الدين.....52

لقـاء في المغـيب.....55

وداع ليلى 61

إبحار في صباحات التيه.....64

وجـع الأسمـاك.....68

فـروق تـوقيت 73

في العـاصفة 77

ومـات مجـددًا 84

حيـاة.....89

جرعة ناقصة.....93
على ناصية العمر 98
مقابلة عمل.....103
نافذة القطار 106
فـراق.....109
ألـوان الظـلام 113
فـراشـة مُتعَبـَة 119
فـارس أحـلام.....122
ذاكـرة الألـم 125
وحيـدًا 128
الفهـرس 133

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

نشر كل إنتاج إبداعي بجودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، حتى لا ينزف الوعي من ثقوب الذاكرة، بأعمال تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة، والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.